محمد تقي الأميني

رئيس الشئون الإسلامية بجامعة عليگره بالهند



ترجمة

د. مقتدى حسن ياسين

وكيل الجامعة السلفية بالهند

مراجعة وتقديم

د. عبد الحليم عويس

دار الصحوة للنشر والتوزيع

محمد تقي الأميني الندوي
رئيس الشؤون الإسلامية بجامعة عليكرة بالهند

عصر الإلحاد

خلفيته التاريخية وبداية نهايته

ترجمة
د/ مقتدى حسن ياسين
وكيل الجامعة السلفية بالهند

مراجعة وتقديم
د/ عبد الحليم عويس

دار الصحوة للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدى الكتاب

بقلم

الدكتور عبد الحليم عويس

وداعاً ... عصر الإلحاد ...

وداعاً ... وإلى غير رجعة !!

وداعاً ... لالقاء بعده ياعصر الغرور والعناد ...

وداعاً ... غير مأسوف عليه ياعصر الجحود بالخالق ، والركوع للمادة والاستعباد للعقل ، وسجود الإنسان لبعض ما صنعته يداه من أصنام فى القديم ومن مخترعات وآلات فى الحديث ، ومن نظريات وتشويهات لدين الله الحق ... تناثرت على جانبى تاريخ البشرية الطويل !!

لقد كنت(ياعصر الإلحاد) تدب فى جسم التاريخ كما تدب الجراثيم... تعيش على أفضل ما فى الجسم ، وتقتل — فى الوقت نفسه — فى الجسم المسكين القوة والمتعة والروح والحياة ... والأنكد من ذلك أنك كنت تزعم أنك أنت (القوة) وأنت (العقل) وأنت (التقدم) وأنت (الحياة)... مع أنك — أيها الإلحاد الكنود — عين الضعف والتخلف ، والموت ... !!

فما تسربت أيها الإلحاد إلى جسم أمة رلا حضارة إلا وجلبت معك الفوضى والانحلال والغوغائية وجنون (اللامعقول) وفلسفة (الجدل) وقدت الإنسان إلى حتفه بظلفه ... وجعلته يسير إلى نعشه (راقصا) ... يفلسف كل نقص ، ويدبج المقالات والكتب مدافعاً عن المجرمين الذين أوردوه المهالك ، وضللوا خطواته على درب الحضارة وقننوا له الفساد ، واستعبدوه بزخرف من القول ، وابتدعوا له كتباً ومواثيق ونظريات سقطت حتى فى فكر مخترعيها وفى سلوكهم .. لكن ضل بها — من

ورائهم — معتوهون وجدوا فيها سلما لمآرب ساقطة ؛ يضحكون بها على من أضلهم الله على علم ، ومن أضلهم على جهل ...

لكم سقطت — على يديك حضارات — أيها الإلحاد ، وهى لا تدرى أنها حين رضيت بك منهجاً — إنما حفرت بك قبرها ....

ولكم انحرفت — بسبب تسرب أفكارك — رسالات مقدسة كريمة ، شوهها أصحابها ليرضوك — بعض الرضا — فحملوا إلى رسالتهم جرثومة الموت ...

(فبعض) جراثيم الكفر .. .. تفسد (كل) الإيمان ... لأن حقيقة الإيمان الناصعة لاتقبل شريكا ولا ترضى لجدول مائها العذب بالقاذورات الإلحادية ، وسوف يجدون أنفسهم — إذا اتبعوا هذا المنهج — مضطرين للتعرف على الفكر المعاصر ، بقياداته المختلفة ، وسوف يفتح هذا الفكر أمامهم — بإيجابياته وسلبياته — آفاقا كثيرة ، وسوف ينفذون من خلال معركتهم معه إلى العقل الحديث ، ولعلهم ينجحون — وماذلك على الله بعزيز — فى غزو هذا الفكر الذى يكتسح مساحة واسعة فى الوعى البشرى !!

والحق أن هذا الاتجاه — الذى يسد ثغرة كبرى من ثغور المسلمين — قد سبق إليه كثير من المفكرين المسلمين فى شبه القارة الهندية وباكستان وضربوا فيه بسهم وافر ، وعلى رأس هؤلاء العلامة الشيخ (أبو الحسن الندوى) فى كتابه الرائع (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) والمفكر الإسلامى الأستاذ (وحيد الدين خان) فى كتابيه (الإسلام يتحدى) و (الدين فى مواجهة العلم) وغيرهما ... والعلامة الأستاذ (أبو الأعلى المودودى) — رحمه الله — فى كتبه الكثيرة التى يتفتح فيها هذا المنهج ، حتى فى دراساته التى تبدو إسلامية خالصة ، مثل (الحجاب) و (تحديد النسل) !!

* * *

... ويأتى الأستاذ (محمد تقى الأمينى) رئيس قسم الشئون الدينية بجامعة عليكرة — كبرى الجامعات الإسلامية بالهند — واحدا من هؤلاء

الأعلام الذين تحقق لهم المنهج السابق ، فهو على الرغم من تخصصه فى الشئون الإسلامية — ملم بتيارات الفكر الحديث قادر على استيعابها والحوار معها وتفنيد ما يستحق التفنيد منها .

إنه ليس باحثا تقليدياً ولا مفكراً يناقش بالعاطفة أكثر مما يناقش بالعقل ، بل هو مفكر مسلم مزود بالأسلحة الفكرية التى لابد منها للذود عن الإسلام فى هذا العصر الحديث .

ولقد كان لى شرف مراجعة كتابين سابقين للأستاذ محمد تقى الأمينى وتقديمها وهما : الإسلام: تشكيل جديد للحضارة ، وبين الإنسان الطبيعى والإنسان الصناعى . . ولقد لقى الكتابان صدى طيباً فى أوساط المثقفين المسلمين ... واليوم يسرنى أن أقدم كتابه الثالث (عصر الإلحاد : خلفيته التاريخية وبداية نهايته) ... والمؤلف يقصد بعصر الإلحاد عصر الثورة الصناعية التى أصبح فيها الإلحاد (علما) ومنهج (حضارة) و (فلسفة) . وأصبح فى أجزاء كثيرة من العالم — سياسة تفرض بقوة الشرطة ، وينص عليها فى دساتير بعض البلاد ، وتحميها كل النظم الثقافية والاجتماعية وتوجه إليها كل الأوضاع الأخلاقية والنفسية ...

إن هذا العصر الذى انتشر فيه الإلحاد (قد مهد له فلاسفة كثيرون .. بذروا بذور الإلحاد فى نظريات ومذاهب ، وحاولوا تلفيق أديان جديدة . لها بعض سمات الدين .. ولكن أكثر بذورها من أصداء الإنسان ومن حصاد عقله المنحرف وفكره المنطلق من الضوابط ، السابح فى دنيا الخيالات والأوهام ...

لقد اعتنقت أوربا (النصرانية) قلبيا ورسميا — لكنها اعتنقت عقليا وفكريا وتنظيميا الوثنية اليونانية الرومانية ،ودين الإصلاح اللوثرى (نسبة إلى مارتن لوثر) والكالفنى (نسبة إلى كالفن) والدين الطبيعى (أى الدين بدون وحى والذى لايتقيد بشعار) وكل هذا كان لابد أن يجعلها تعيش بفكرها ونظمها (عصر الإلحاد) الذى لايزال يهيمن عليها ... والذى

ينتشر بسمومه من خلال هيمنة أوربا الإعلامية والثقافية إلى أكثر أجزاء العالم .

وهذا الكتاب هو مناقشة وتفنيد لهذا العصر ولأديانه الملحدة وإن كنت أعتقد أن المناقشة جاءت مركزة أكثر مما ينبغي ! !

* * *

ومؤلف هذا الكتاب صاحب دراسات كثيرة ، من أهمها إلى جانب الكتب التي ذكرناها كتبه :

- النظام الإلهى للتقدم والتخلف .
- موقف الإسلام من الاجتهاد .
- الفقه الإسلامى : تطور وتاريخ .
- الاجتهاد : تطور وتاريخ .
- مراعاة الأحوال والظروف فى التشريع الإسلامى .
- نظام الزراعة فى الإسلام .
- كيف تحل مسائل العصر .
- التفاهم بين الأديان .
- التخلف التعليمى للمسلمين .
- التدوين الجديد للفقه الإسلامى .
- حكم خبر الهلال بالراديو .
- حقيقة التأمين وحكمه فى الإسلام .
- حكم الاستثمارات المالية فى الإسلام .
- معيار الدراسة للحديث .
- المشكلات الاجتماعية للعصر الحاضر .

- الفقيه ومناط الاستنباط للأحكام الشرعية .
- السياسة فى مصطلح الشريعة .
- القطائع فى الإسلام .
- العقوبات الشرعية والمجتمع الجديد .

هذا .. وقد ولد الأستاذ محمد تقى الأمينى فى قرية سبيحة بمديرية (بارة بنكى) قرب لكهنؤ عاصمة ولاية أوتار براديش بالهند سنة ١٩٢٦ (١٣٤٤ هـ) وتخرج من الجامعات الإسلامية بالهند ثم عين أستاذا بدار العلوم ندوة العلماء بلكهنؤ ثم انتهى به المطاف سنة ١٩٦٤ م مسئولا عن التدريس والإشراف على الشئون الدينية بجامعة عليكرة الإسلامية الشهيرة حيث لايزال – أطال الله عمره – يعمل بها حتى الآن .

وإننا لندعو الله سبحانه وتعالى أن يجعل عملنا خالصاً لوجهه وأن ينفع بعملنا الإسلام والمسلمين .

الرياض فى غرة رجب ١٤٠٤ هـ
إبريل ١٩٨٤ م

مقدمة المؤلف

إن أعقد مسألة من مسائل العالم المهمة هى مسألة إحياء الدين ، أو نشأته الثانية ، والسبب الرئيسى لهذا التعقيد ما يلى :

١ – أن السياسة المعاصرة للعالم تعارض المبادئ والمعتقدات الدينية، وهى تملك السلطة والقوة .

٢ – والدين والسياسة ليسا متعارضين فيما بينهما فى الحقيقة ، بل يوجد بينهما تحالف وتوافق ، ولكن انعدام التوازن والانسجام فى الانتفاع بهما، وفى طريقة هذا الانتفاع هو الذى يظهر آثارهما متناقضة ، فتصبح السياسة مالكة لمدرسة فكرية مستقلة ومظهراً لتفكير خاص . بينما يصبح الدين مجموعة متراكمة من العقائد البالية والعادات والتقاليد القديمة .

ومن ثمار هذا التناقض أنه إذا نجحت السياسة فى أن تخضع الإنسان للعقل المنحرف والهوى الجامح وسيطرة العواطف ، فمن ناحية أخرى يبدأ الدين فى التخلى عن صورته الأصلية ويدعو إلى الفرار من الحياة ، فيصير الإنسان المتدين نهبا للجمود والخمود وينحصر فى نطاق ضيق جداً .

وبما أن السياسة تكون ذات سيطرة كبيرة مطلقة ، فإنها تقسم الإنسانية فى كل عصر بأسلوب جديد لصالحها ، وبدون ذلك لا يمكنها تلبية مقتضيات العقل المنحرف والهوى الجامح .

وبما أن الدين يكون مغلوبا على أمره ، ومحصوراً فى نطاق ضيق فإنه يؤدى من البداية إلى صراع بين طبيعة هذا الدين وبين طبيعة الإنسان المحبة للسيطرة ، وينتج عن هذا أن تتحول أرضية الدين المقدسة الآمنة إلى ساحة ملطخة بدماء القتال وقتامة الجدال .

وفى هذه المرحلة يظهر (دين سياسى) آخر يعتبر نسخة مماثلة للسياسة المسيطرة ولكن السياسة ربما تجد يسراً وسهولة فى تحقيق أهدافها باسم الدين ، نظراً لامتلاكها القوة والسيطرة ، بينما يقع الدين فريسة سهلة لتحقيق مقاصد السياسة ،ومن هنا يرى أهل السياسة ضرورة استخدام الدين لتحقيق المصالح السياسية .

وهذه الصورة تبرز حينما تصاب الطبيعة — المحبة للسيطرة — بمركب الشعور بالنقص ولا تجد سبيلا لتحقيق عاطفة السيطرة هذه عن طريق الدين فتوجد (الدين السياسى(١)) لتحقق به أهدافها .

وعندما تقتصر السياسة على الدين تفسد هيئة الدين الحقيقية ، وتتغلب (مصلحة) الإنسان على (الدين) فلا يبقى مثل هذا الدين صالحا لإحداث تغيير رئيسى فى حياة الإنسان الداخلية أو قادراً على غرس العناصر الصحيحة للحياة من تضحية وإيثار وشجاعة وإقدام وغيرها، وحينئذ تذهب روح الدين الأصلية وتضيع كثير من عناصر الإصلاح والتهذيب فى الدين .

وهنا يصطدم الدين الجديد مع الدين الحقيقى ، ولكنه لا يكون صداماً دينياً فى الحقيقة ، بل هو صدام المصلحة مع المصلحة ، ولكن الدين لايستخدم إلا باعتباره مجرد وسيلة فقط ، فيفهمه الناس صداماً دينياً ويفسدون سمعة الدين الحقيقى .

وإلا فالظاهر أن الدين الذى أنعزل عن الحياةومتطلباتها وأنهكته السيطرة السياسية لن يستطيع مقاومة الفساد العالمى وسيدخل فى مشكلات تنازع البقاء .

---

(١) تخدع القوى الكبرى التى تحاول السيطرة على العالم انسانية هذا القرن بمذاهب تقدمها على أنها ذات طابع (أيديولوجى) لكن الأحداث تثبت كل يوم أنها غطاء لأهداف سياسية فالشيوعية (دين سياسى) كشف عن وجهه الاستعمارى منذ نشأته ، وامتزج بالقوة العسكرية الدكتاتورية ، لكن لازالت (الديموقراطية) — مع ذلك — تقدم على أنها دين سياسى وهى سياسة محضة .
(المراجـع)

وهذا الكتاب يعالج التاريخ الإجمالى لعصر الإلحاد ، حتى نتمكن من عرض النشأة الثانية للدين فى أوربا وهو ما يعرف بحركة (مارتن لوثر) وماتلاها ، وقد اكتفينا بشرح أحوال أوربا لأن بداية العصر الحديث وانتشار النظريات اللادينية يتعلقان بها على نحو أكثر

وفى البداية تطرقنا لبعض الآثار فى ضوء الوحى الإلهى حتى يتبين نوع الآثار التى تترتب على سيطرة الأهواء والأغراض حينما يفقد الدين حركته ومكانته الأصلية .

وقد استشهدنا فى ذلك بأحوال اليهود والنصارى .

وأسأل الله تعالى أن يتقبل هذا الجهد المتواضع ويوفق لخدمة دينه بإخلاص .

محمد تقى الأمينى

(جامعة عليكرة) الهند

تمهيد

نتائج الدين المزيف على الحضارة الانسانية في ضوء القرآن الكريم

لقد بيَّن الوحى الإلهى الآثار الضارة للدين الذى حرفه البشر ، وهذه الآثار لاتختص بدين واحد أو بأتباع دين معين ، بل إنها لتظهر واضحة فى أتباع كل دين يفقد استقلاله ومنزلته عندما تستولى الأهواء والأغراض الشخصية عليه ، ثم تقضى – بعد ذلك – على قوة المقاومة والإيمان فى الأمة فتتعرض الأمة لأنواع من الثورة والانقلاب .

وقد شرح القرآن الحكيم هذه الآثار الضارة على النحو المفصَّل التالى :

١ – عندما ينحرف الفهم للدين تنعدم روح العزيمة والثقة فى المبادئ والنظريات ، وتضيع الروح التى تدفع الإنسان إلى العمل وينغرس الرعب فى قلبه ، وفقاً لحديث رسول الله ﷺ (وليزرعنَّ الله فى قلوبكم الوهن) أى كراهية الموت . بينما تنزع مهابة المؤمنين من قلوب الكافرين ، فبينما كان الكفار يرعبون منهم وفقاً لقول الله تعالى :

« سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا » (١)

فإنهم لايخافونهم بعد ارتكاسهم إلى هذا الدين المشوه ! !

---

(١) آل عمران : ١٥١ .

٢ – تفقد الحياة فى ظل هذا الدين المنحرف – النظام والالتفاف حول مبدأ واحد ، وتتلاشى عاطفة الاتحاد وأخلاق الطاعة :

« وَإِذَا دُعُوا إِلَى ٱللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُم إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُم مُعْرِضُون » (١)

٣ – وكذلك تفنى قوة القلب وتنعدم الثقة بالله فتضعف الهمة ، وتذهب روح الاستقامة وضبط النفس :

« يُثَبِّتُ ٱللهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلآخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللهُ الظَّالِمِين » (٢) .

٤ – تصير النفس ملتقى للظنون والأوهام :

« يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ ٱلحَقِ ظَنَّ ٱلجَاهِلِيَّة » (٣) .

٥ – ويسرى النفاق فى الحياة فلا يتفق الظاهر مع الباطن ، وتبدو أقوال المنافقين وأعمالهم فى غاية الحسن والبهاء ، وبخاصة فى الأوقات التى لا تقتضى تضحية بالأغراض أو المصالح الشخصية ، ولكن إذا جاء وقت التضحية والإيثار أو ظهر أن مصالحهم ستتأثر فإنهم ينكشفون ولا توجد فيهم قوة التحمل والصبر .

والآية الكريمة تصور هذه الحالة بأسلوب بليغ فتقول :

« وَإِذَا رَأَيْتَهُم تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُم وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِم كَأَنَّهُم خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ ، يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ ٱلْعَدُو فَاحْذَرْهُم » (٤) .

---

(١) النـور : ٤٨ .
(٢) ابراهيم : ٢٧ .
(٣) ال عمران : ١٥٤ .
(٤) المنافقـون : ٤ .

٦ — ولاتبقى الأهداف والغايات — فى ظل الدين — واضحة جلية أمام الأنظار ، وبالتالى فلا يتم إنجاز الأعمال الشاقة بل تعم عبادة الترف والرفاهية.

« وَمِنْهُم مَنْ يَقُولُ ائْذن لِى وَلاتَفْتِنِّى ألا فِى الْفِتْنَة سَقَطُوا » (١)

٧ — وتكون الحياة عبارة عن تجنب المخاطر وجرياً لاهثاً وراء المصالح عن طريق تنميق الكلام وأساليب الاحتيال ، وما إلى ذلك . قال تعالى :

« لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لاتَّبَعُوكَ وَلَكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَة » (٢) .

٨ — وتظهر فى ظل الدين المنحرف عبودية المصالح الشخصية ويتم تحصيلها بالطرق المباحة والممنوعة ، وكذلك تهمل مصالح الأمة الجسيمة فى سبيل تحقيق مصلحة فردية تافهة ، ويذوب الإحساس الاجتماعى لدى الناس فلا يأبهون بأحزان الأمة ولا أفراحها ، ولا يبالى أحد بالأمة مهما واجهتها الكوارث .

« إنْ تُصِبكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُم ، وإنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُون » (٣) .

٩ — تؤدى الشعائر والواجبات الاجتماعية ببرود وكسل فلا توجد فيها حالة التفاعل ولا الانفعال ولا الطمأنينة وحضور القلب :

« وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاؤونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللهَ إلاَّ قَلِيلاً » (٤) .

---

(١) التوبة : ٤٩ .
(٢) التوبة ٤٢ .
(٣) التوبة : ٥٠ .
(٤) النساء : ١٤٢ .

١٠ – وتذهب روح الصدق والإخلاص ، فلا يبالى الإنسان بالطرق المشروعة أو غير المشروعة فى تحصيل المال :

« وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِى الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وإِنْ لَمْ يُعْطَوا مِنْها إِذَا هُمْ يَسْخَطُون » (١) .

١١ – وتنعدم القوة الإرادية بانعدام نعمة الإيمان واليقين فيظهر الجبن والخسة فى مواقف تقتضى العزيمة والهمة :

« لَوْ يَجِدُونَ مَلْجأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخلاً لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُون » (٢) .

١٢ – وتنعدم روح الاتباع الحقيقى للدين ، ويكون التظاهر بالتدين وسيلة الحصول على الدنيا ، وفى هذا التظاهر يكون التركيز على الفروع والتوافه ، بينما تهمل الأحكام الأساسية الأصلية :

« ثُمَّ أَنتُم هَؤُلاَءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُم وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُم مِنْ دِيَارِهِم تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالعُدْوَانِ وإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبعض » (٣) .

١٣ – ومع ظهور الدين السياسى يصير التفرق والتحزب حيلة ثانية ، وتحل (القومية) و (الحزبية) محل اتباع الحق ، ولا تكون العقيدة والعمل مقياساً لمعرفة الخير والشر ، بل يكون المقياس هو : هل هذا الإنسان منضم إلى حزبنا أو لا ؟ فإن كان منضما فهو طيب مهما كانت أعماله فاسدة . وإن لم يكن فهو سيء مهما كانت أعماله صالحة :

---

(١) التوبة : ٥٨ (٢) التوبة : ٥٧ .

(٣) البقرة : ٨٥ .

« وَلَنْ تَرْضَى عنكَ ٱليَهُودُ وَلَا ٱلنَّصارَى حَتَّى تَتَّبعَ مِلَّتَهُم » (١) ؛

١٤ – ينصرف الاهتمام عن الأعمال البناءة إلى مجالات التحقير والازدراء ، فكل فرقة تحقر الأخرى وترى أن ذلك خدمة دينية كبرى !!

« وَقَالَتِ ٱليَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ ، وَقَالَتِ ٱلنَّصَارَى لَيْسَتِ ٱليَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلكِتَابَ ، كَذَلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَايَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِم » (٢) .

١٥ – ويعتبر إنجاز الأعمال بالكذب وإخلاف الوعود فنا ، وينعدم الشعور بقبحها :

« فَأَعْقَبَهُم نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِم إِلَىَ يومِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفوا ٱللهَ مَا وَعَدُوه وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُون » (٣)

١٦ – تنعدم عاطفة الخدمة الوطنية والجماعية ، والذين يقومون بهذه الخدمة بإخلاص واجتهاد يتعرضون للطعن والسخرية ... قال تعالى :

« الَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلمؤْمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَاتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُم فَيَسْخَرونَ مِنْهُم سَخِرَ ٱللهُ مِنْهُم وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيم » (٤) .

١٧ – يؤتى باسم الدين بأعمال تؤدى إلى التفرق والانتشار :

« وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ ٱلمؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ ٱللهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ ٱلحُسْنَى ، وَٱللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُم لَكَاذِبُون » (٥) .

---

(١) البقرة : ١٢٠ .
(٢) البقرة : ١١٣ .
(٣) التوبة : ٧٧ .
(٤) التوبة : ٧٩ .
(٥) التوبة : ١٠٧ .

١٨ — يسمى الجمود على التقليد ثباتاً على الحق ، مع أنه أعظم علامة على موت الإحساس وفقدان الشعور ، فإن الثبات على الحق أعظم دليل على الحياة ، قال تعالى :

« وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِم » (١) .

١٩ — تنشغل الأنظار عن الحقائق متلهية بالسحر والرق والتمائم وغيرها . قال تعالى :

« وَٱتَّبَعُوا مَا تَتْلُو ٱلشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ » (٢) .

٢٠ — وتتلاشى القدرة على مصارعة أعباء الحياة ، والقدرة على تحمل المصائب والمشكلات ، وتظهر ألوان من أعمال الكفر وفساد العقيدة .. قال تعالى :

« وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَافِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّاوَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورا » (٣)

٢١ — يغلب الهوى والانحراف حتى تنسد طرق قبول الحق والصدق ... قال تعالى :

« أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِم وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْغَافِلُونَ » (٤)

٢٢ — لايخلص التوجه النظر إلى الله تعالى ، بل يعتقد التأثير فى غيره من الأشياء وينشأ الجبن والخوف وتنعدم العزيمة والإقبال على المشاق ..

---

(١) البقرة : ٨٨ .
(٢) البقرة : ١٠٢ .
(٣) الأحزاب : ١٢ .
(٤) النحل ١٠٨ .

« إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُم وَأَمْلَى لَهُم » (١)

« سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِم » (٢) .

٢٣ – يسيطر الخوف من الناس على الخوف من الله ، وتسلب قوة المقاومة والدفاع ، ويبدو الاتحاد ظاهرا ولكن القلوب تكون متنافرة وتتسع هوة الخلاف فيما بينهم :

« لاَ يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلاَّ فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ ، بَأْسُهُمْ بَيْنَهُم شَدِيدٌ ، تَحْسَبُهُم جَمِيعاً وَقُلُوبُهُم شَتَّى » (٣) .

٢٤ – وفى ظلال هذا الدين المنحرف يستذل أتباع الحق ويبتعد الناس عنهم كلما أمكن ذلك ... قال تعالى :

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ » (٤)

٢٥ – تحل الأمانى والآمال محل العمل ، والناس يتهربون بها من الأعمال التى تقتضى العزيمة والإقدام :

« وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّون » (٥)

---

(١) محمد : ٢٥ .
(٢) الفتح : ١١ .
(٣) الحشر : ١٤ .
(٤) المنافقون : ٥ .
(٥) البقرة : ٧٨ .

« وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَعْدُودَةً ، قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ ٱللهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ ٱللهُ عَهْدَهُ ، أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللهِ مَالاَ تَعْلَمُون » (١) .

٢٦ — ينحط المستوى الخلقى جداً ويضطرب مقياس العمل ، وترتكب المعاصى بجرأة إلى أن يذهب الشعور بإثمها وقبحها من القلب تدريجياً ..

« وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لاَ يَسْمَعُون . إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَابِّ عِنْدَ ٱللهِ ٱلصُّمُّ الْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لاَ يَعْقِلُون . وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَهُمْ مُعْرِضُون » (٢)

٢٧ — تبرد عواطف الرق ، وتجف منابع العزيمة والطموح ، فتنقضى الحياة فى السعى وراء المصالح التافهة الفانية وينظر إليها على أنها غاية الحياة ..

« وَإِذْ قُلْتُم يَامُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ ٱلأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا » (٣) .

٢٨ — تعم حالة اليأس والقنوط بصفة عامة فيقتنع الجميع بالسلام المذل :

« قَالُوا يَامُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُون » (٤) .

٢٩ — تبتلى الأمة بالصراع الطبقى ، ويسيطر اتجاه الترف والبذخ على جميع الناس ، وتنشأ طبقة المستغلين المتهالكين على جمع المال ... هؤلاء

---

(١) البقرة : ٨٠ .
(٢) الأنفال ٢١ — ٢٣ .
(٣) البقرة : ٦١ .
(٤) المائدة : ٢٢ .

الذين يعيشون عالة على الأمة ويسعون أن يعيشوا دائما فى الترف والدعة والاسترخاء . وبدون عمل أو شعور بالمسئولية ...

« إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ » (١)

وقال تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » (٢)

« وإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرا » (٣)

٣٠ – يعم المعنى الخاطئ للتوكل والقضاء والقدر ، فتتعطل القوى العاملة وترسخ فى النفس صفات التكاسل وعدم المبالاة بالعواقب ، ومع ذلك يصل الغرور والانخداع إلى أن يحسب الناس أنهم أحباب الله وأنهم وحدهم يستحقون الجنة ، ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ... قال تعالى :

« وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُه » (٤) .

« وقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَعْدُودَةَ » (٥)

٣١ – يقسو القلب ويخلو من الشعور بالحياة الحقيقية ، فلا يكون قادراً على العبرة والعظة ، ويقتنع المرء بحالته الضائعة السيئة ، وتنقطع الآمال فى التقدم والارتقاء الحى ...

---

(١) القصص ٧٦ .
(٢) التوبة : ٣٤ .
(٣) الاسراء : ١٦ .
(٤) المائدة : ١٨ .
(٥) البقرة : ٨٠ .

« ثُمَّ قَسَتْ قُلوبُكُم مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَة»(١)

٣٢ ـ يطغى حب المال والحياة فترتب على ذلك الآثار التالية :

(ا) لا يتم إنجاز الأعمال التى تحتاج إلى الهمة والعزيمة والإيثار والتضحية.

(ب) تستخدم الأغراض والمصالح العامة ستاراً للأغراض والمصالح الشخصية .

(ج) تذوب القوة العسكرية وتحل آلات الترف محل آلات الحرب .

(د) تسود فى الحياة عواطف التملق والنفاق .

(هـ) تنعدم عواطف الحمية والغيرة على الأمة والشعور بأهمية العمل الجماعى حفاظاً على بقاء الجماعة وحقوقها . . . قال تعالى :

« وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ » (٢) .

« وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَادُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً » (٣) »

« وَتَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِى ٱلإِثْمِ وَٱلعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ، لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُون . لَوْلاَ يَنْهَاهُمُ ٱلرَّبَّانِيُّونَ وَٱلأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ ٱلإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ » (٤) .

٣٣ ـ تسود الغشاوة على التفكير ، فلا توجد العزيمة المؤدية إلى اتخاذ خطوات التقدم الواضحة ، ويزين الشيطان لهم أعمالهم بحيث يحسبون أنهم قد أحرزوا كل شىء :

---

(١) البقرة : ٧٤ .
(٢) البقرة : ٩٦ .
(٣) آل عمران : ٧٥ .
(٤) المائدة ٦٢ ، ٦٣ .

« وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَكُمْ ، فَلَمَّا تَرَاءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ ، إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ » (١) .

٣٤ – يتهرب الناس من تحصيل العلم والحكمة فإن العالم الذى يعيشون فيه لا يجد العلم الحقيقى ولا الحكمة الصحيحة إليه سبيلا ، ولا تتعطل قلوبهم فقط ، بل تتعطل جميع قوى الإدراك والتفكير فتنعدم بصيرة النفس ويفسد الذوق والوجدان فلا يمكن إدراك الحق ولا يبذل الجهد المناسب فى سبيل الوصول إليه ..

(بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا » (٢) « إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَابِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ » (٣)

٣٥ – يسرى إلى النفوس نوع من الجمود ، فلا يتأخر الإنسان ولا تتغير حالته مع أنه يسمع ويرى كل شئ :

« أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ، فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَارُ ، وَلَكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ » (٤)

٣٦ – إن الأمة بمجموعها تغرم بالغرائب ، فما ترى فى شىء غرابة إلا اعتقدت فيه واتبعته :

« فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ » (٥)

---

(١) الأنفال : ٤٨ .

(٢) النساء : ١٥٥ .

(٣) الأنفال : ٥٥ .

(٣) الحج : ٤٦ .

(٥) طه : ٨٨ .

٣٧ — يذهب المنكرون لجرائم المجتمع ، وأما من يبقى فلا يسمع صوته ، ولا يستجاب لنصائحه ، وهكذا تنطمس سيرة الأمة بأسرها : قال تعالى :

« قُلْ هلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ، أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ » (١)

٣٨ — ينشغل أفراد الأمة بالشكاوى بدل تحمل الأعباء فى سبيل المصالح وينشغلون بالجزع والبكاء على حظوظهم فى الأوقات التى تقتضى الشجاعة والهمة .

« قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا » (٢)

٣٩ — يحصل الإقبال على الرغبات والمصالح ، ويظهر الإعراض عن الهجرة والجهاد وحب النصر (وهى من عوامل البقاء) فيحاول الإنسان الحصول على أغراضه بالمبررات والحيل :

« وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَوِ ادْفَعُوا ، قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لَاتَّبَعْنَاكُم » (٣)

٤٠ — لا يبقى أثر لضبط النفس ، ولا تنشأ الهمة للعمل ، ولو بدأ الإنسان عملا فإنه لا يثبت عليه :

« فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ ، فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي ، وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ

---

(١) المائدة : ٦٠ . (٢) الأعراف : ١٢٩ .
(٣) آل عمران : ١٦٧ .

غُرْفَةً بِيَدِهِ ، فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ ، فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ » (١) .

٤١ ــ تكثر المناقشة حول القلة والكثرة ، مع أن النجاح والفشل لايتوقفان على القلة أو الكثرة ، بل يعتمد على قوة القلب والكفاءة الذاتية . قال تعالى :

« كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ ، وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ » (٢) .

٤٢ ــ يزداد الحرص على المال وحب الحياة فى العلماء ودعاة الدين ، فيجترئون على تأويل الأمور الدينية حسب أهوائهم للحصول على الغاية والمصلحة وإرضاء سادتهم (٣) . قال تعالى :

« يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ ، وَيَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا » (٤) .

٤٣ ــ يبيع العلماء الحق ، ويقدمون آراءهم وأهواءهم على أحكام كتاب الله ، ثم يوجبون العمل بأحكامهم ومسائلهم الاجتهادية المختلفة وكأنها كتاب الله :

---

(١) البقرة : ٢٤٩ .

(٢) البقرة : ٢٤٩ .

(٣) لعل هذه الظاهرة ملاحظة الآن فى معظم بلدان العالم الاسلامى ، ولا سيما وسط البلدان التى يحكمها ثوريون انقلابيون ، وأيضا تكثر الظاهرة وسط الذين يجعلون من الدين مهنة وتدرجا وظيفيا ، وقد غيرت قوانين الأحوال الشخصية فى بعض بلدان العالم الاسلامى بتأثير أمثال هؤلاء العلماء (المراجع) .

(٤) المائدة ٤١ .

« فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ » (١) .

٤٤ — ويؤدى بهم اتّباع الغرض والهوى والمصلحة إلى معاداة دعاة الحق ، ويسومون المصلحين أنواع البلايا والمحن :

« أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاتَهْوَى أَنْفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ » (٢) .

٤٥ — يحدثون باسم الدين مايؤدى إلى التفرقة والتشتت :

« وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ » (٣) .

٤٦ — يكذب أحدهم الآخر وينال منه ، وينسبون الخلاف الناشىء من عنادهم وبغيهم إلى الدين نفسه ، وذلك كله للمصالح الدنيوية وحب السيطرة :

« وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ » (٤) .

٤٧ — يسيطر عليهم اتجاه الترف والدعة ، ويصير الخور والتكاسل والتعطل والتطفل طبعا لهم ، الأمر الذى يؤدى إلى الإفتاء بإباحة الرشوة والنذور البدعية ، ويتعاملون مع أحكام الله تعالى معاملة البيع والشراء :

---

(١) البقـرة : ٧٩ .
(٢) البقرة : ٨٧ .
(٣) التـوبة : ١٠٧ .
(٤) آل عمران : ١٩ .

« سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ ، فَإِنْ جَاؤوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُم أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُم ، وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُم فَلَنْ يَضُّروكَ شَيئاً » (١)

٤٨ — يتخذون أساليب الحيلة والمكر التى لاتمت إلى الدين بصلة للحصول على المال والثروة :

« وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ ، وَمَا هُوَ مِن الْكِتَابِ ، وَيَقُولُون هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَمَا هَو مِنْ عِنْدِ اللهِ ، وَيقُولُون عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُون » (٢) .

٤٩ — يعرضون عن مبادىء الدين وأصوله إلى الفروع والأمور البالية، حتى يأكلوا بها ويدوروا حولها فى الحياة :

« أَجَعَلْتُم سِقَايَةَ الحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِى سَبيلِ اللهِ لاَ يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللهِ » (٣)

٥٠ — تذهب روحانية القلب ويسيطر الشيطان ويغلب الهوى والشهوة :

« أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْم وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً ، فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ » (٤) .

* * *

إن هذه الآثار المبينة فى القرآن الحكيم — والتى بسطناها فى الصفحات السابقة — توجد فى مسلمى العصر الحاضر ، وفى قادتهم الدينيين والفكريين. كما وجدت — هذه الآثار نفسها — فى اليهود والنصارى والمشركين فى العصر القديم . وإن صور التأويل والتزوير والاغترار والانخداع التى ظهرت من

---

(١) المائدة : ٤٢ .
(٢) آل عمران : ٧٨ .
(٣) التوبة : ١٩ .
(٤) الجاثية : ٢٣ .

قبل — لتوجد فى مسلمى العصر الحديث وعلمائهم مع تغاير — غير ملحوظ — فى النوع والكيف .

وأيضا فإن (الاحتكار الدينى) و (الطائفية) قد ظهرت اليوم مثلما حكاها القرآن الكريم فى هذه الآية :

« وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنصَارَى عَلَى شَيْءٍ ، وَقَالَتِ ٱلنَّصَارَى لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ ، وَهُم يَتْلُونَ ٱلْكِتَابَ ، كَذَلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لاَ يَعْلَمُون مِثْلَ قَوْلِهِم » (١) .

وأما صورة العذاب فقد ظهرت فى الحالين مثلما ورد فى القرآن الكريم :

« قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ »(٢).

وفى الصفحات التالية نذكر بعض (الشهادات التاريخية) التى تتضح بها الآثار المذكورة ، كى تتبين لنا حالة (الدين الأصلى) عندما يفسد ، وكيف أنه يضر البشرية أيما ضرر ، وكيف تسرى الجرائم إلى أتباعه فتهرب الحياة من الحياة ، ويتحول طريق الهدى إلى طريق الضلال !!

---

(١) البقـرة : ١١٣ .
(٢) الأنعـام : ٦٥ .

الفصل الأول

الدين قبل النشأة الثانية

الإنسان والدين :

كانت عبادة الأوهام قد وجدت سبيلها إلى النصرانية قبل نشأة أوربا الثانية ، وهى النشأة التى بعثها الجرأة على تحريف النصوص ، وإقحام العقل البشرى فى مجال إخضاع الدين لرغباته !!

وقد حكم على الإنسان فى هذه النشأة الثانية بأنه فاسد بفطرته . .

— يقول« ليكى »(١)«إن التأكيد على وجه البشريةالأسود قد أدى بعلماء النصارى إلى الغلو فى التصور بأن البشرية مليئة بالمعاصى ، فزعموا أن المعصية أصيلة فى جبلة الإنسان وأنه يميل إلى الشر بفطرته » .

ويقول (ليكى) فى موضع آخر ، « إن مرض الرهبانية أشد تأثيرا وإيلاماً من أى أمر آخر فى تاريخ أخلاق العالم . وللأسف فإن الأمم التى ارتوت وانتعشت بأفكار أفلاطون وسيسرو(٢) ، وكانت أمامها سيرة سقراط (٣) وكيتو (٤) الطاهرة المكرمة قد اقتنعت بأن تجعل هدفها

---

(١) احد المؤرخين الأوربيين المعروفين ، وهو مؤلف كتاب تاريخ اخلاق اوربا (المراجع) .

(٢) سيسرو : ولد فى عام (١٠٦) ق.م. فى بريثون بريطانيا . وتوفى فى ٧ ديسمبر (٤٣) ق.م. فى ايطاليا (المراجع) .

(٣) سقراط : (٤٧٠ ـ٣٩٩) ق.م فيلسوف يونانى ولد فى اثينا وعلم فيهـا فاحدث ثورة فى الفلسفة باسلوبه وفكرة جعله محور الفلسفة معـرفة الانسان نفسه ودرس تصرفاته والنواميس التى تدفع اليها وبهذا اسس عـلم الأخلاق ، كان تعلمه شفهيا عن طريق السؤال والجواب فساعد تلاميذه على اكتشاف المعرفة بذاتهم ، شرب السم فمات فى سجنه وصلت الينا تعاليمه فى كتب تلميذيه أفلاطون ، وكيستوفون .

(٤) كيتو (١٧٨٧ ـ ١٨٥٠) من علماء المعادن الفرنسيين . درس تبلور المحاليل (المراجع) .

وجوداً تافها يخلو من العلم الصحيح ومن حب الوطن ومن الخلق النظيف . وقد أصبح الإنسان يتصور أن حياته تقوم على الظلم ، ويظن بتوهمه وجنونه أنه مجرد شبح ، أقرب ما يكون الى الجن والعفريت (١) . ولمدة قرنين كاملين أصبح قتل الجسد عنده يعتبر منتهى الأخلاق وغاية التدين.

سيطرة الترف : لقد أصبح اتجاه الترف سائداً ، وكان فقدان الضمير والجبن قد قضيا على شرف الإنسان وكرامته الأصلية : وكما يقول (ليكى) صاحب تاريخ أخلاق أوربا : فقد « كانت الأمة الرومانية حينذاك (قبل النشأة الثانية) تتأرجح بين لطمات الرهبانية البالغة والفساد الكبير ، وكانت المدن التى يكثر فيها عدد الزهاد والرهبان مسرحا للترف والانحلال .

كما أن ضعف رأى الجمهور كان قد أدى بالناس إلى الاجتراء، وعدم الخوف من الذل والهوان ، نعم، كان الضمير يمكن أن يخشى من الدين ، ولكنه نفسه كان قد قضى على عقيدة غفران الذنوب بالدعاء وغيره عن طريق صكوك الغفران ، وقد عم المكر والخداع على نحو أكثر من عصر القياصرة (٢) » .

الدين والهوى : وقد صار الدين وسيلة لطلب الدنيا وإشباع نزعات الفساد . فكان الناس يلجأون إلى الدين تهربا من العمل والجهد .

« فكثير من الناس دخلوا فى خدمة الكنيسة فراراً من مسئوليات البلاد، وكثير منهم ترهبوا حتى يأكلوا بدون عمل أو حركة (٣) » ...

---

(١) تاريخ اخلاق أوربا ٢/٣ ، ٧٦ .
(٢) تاريخ اخلاق أوربا ٣/١٠٤ .
(٣) المرجع السابق : نفس الصفحة .

وكانت الحفلات الدينية والاجتماعات السنوية التى تهدف إلى نشر الدين وإظهار المودة والأخوة قد تحولت إلى أماكن للترف ولحفلات التسلية والتفريج عن النفس :

« فالمأدبة الدينية التى تهدف إلى التآخى بين النصارى قد صارت مسرحاً للفساد وشرب الخمر ، وقد تم القضاء عليها فى القرن السابع الميلادى بصعوبة .

ـ وهكذا كانت حال ذكريات الشهداء وتذورهم السنوية ، فقد تحولت المواسم الدينية إلى حفلات وعم فيها إشباع النزعات الجنسية والفساد الخلقى إلى أن اضطر الناس إلى منعها »(١)

التفرق والتحزب : كان التفرق والتحزب قد تسرب إلى الدين ، وكانت كل فرقة تهرب من الأخرى ، وكل منها كانت تعتقد فى عدة أمور فرعية ومسائل بالية لاتتعلق بحقائق الحياة فى شيء ، كانت تعتقد أنها هى مناط النجاة وأنه من الواجب البحث عنها ، وقد تؤدى هذه المناقشات والبحوث إلى صراع وقتال ، ... يقول سيل :

لقد قطع قساوسة الكنيسةالدين تقطيعا وأضاعوا السلام والحب والخير ، ونسوا أصل الدين وتخاصموا حول ظنون وتخرصات وأوهام ... وفى ذلك العصر المظلم ظهرت فى الأشكال الدينية الأوهام التى تخزى الكنيسة الرومانية وتخجلها وانتشرت عبادة الأولياء والتماثيل بدون حياء .»(٢) .

وظهر التفرق والتحزب حول الأمور التى سخر منها ويضحك عليها العالم المتحضر مثل اختلاف القساوسة حول (بول المسيح) عليه السلام هل هو طاهر أو نجس . والخبز الذى كان على المائدة التى نزلت للمسيح من السماء هل كان من الخمير أو الفطير ؟

---

(١) تاريخ اخلاق أوربا ص ١٠٣ .

(٢) ينظر « عروج وزوال كا الهى نظام » للمؤلف بالأوردية .

وهكذا – أيضا – كلاسهم حول (الله والمسيح) هل هما متحدان فى الماهية أو مشتركان فيها(١) .

الدين والإنسان : كان الدين (النصرانى) السائد قد قرر أن الإنسان جامد غير متطور ، الأمر الذى أدى إلى تعطل التقدم العلمى والحضارى ، والذين أسهموا فى تقدم العلوم والفنون لم يتم لعنهم وطردهم من قبل رجال الدين فحسب ، بل تعرضوا لأقسى أنواع الإهانة والتعذيب ، فقد قطع (فيتى نى)(٢) الذى يؤمن بالتطو والارتقاء ثم ألقى فى النار حياً .

كما قتلت (هيباشية) التى شرحت مؤلفات أفلاطون الشهيرة .

وحاول (كوبرنيكس) (٣) إثبات دوران الأرض وسكون السماء فلقب بـ (المنجم) ثم قضى عليه بذل وهوان .

وكان (برونو) (٤) يؤيد آراء كوبرنيكس فألقى القبض عليه وسجن لمدة سبع سنوات ثم ألقى فى نار خفيفة إلى الموت .

وقال (جليليو) (٥) بصحة نظرية دوران الأرض فألقى فى حجرة

---

(١) تاريخ اخلاق أوربا ص ١٣٨ .

(٢) (فيني) : مستشرق فرنسى ، ولد ١٨٧٩ ، نشر الوثائق التركية فى القاهرة – والجزائر ودرس النظم العثمانية .

(٣) (كوبرنيكس) : (١٤٧٣ – ١٥٤٣) فلكى يونانى برهن عن دوران الكرة الأرضية حول نفسها وحول الشمس . (المراجع) .

(٤) برونو : (١٥٤٨ – ١٦٠٠) فيلسوف ايطالى ، تحدى اللاهوتيين واعتقد أن لكل انسان وجهة نظر الى العالم خاصة به ، وأن الحق المطلق فوق ادراك الانسان وأن العالم مؤلف من عناصر أولية لا يرتد بعضها الى بعض بل تعمل وفق قوانين يحكمها مبدأ كونى شامل . اتهم بالزندقة وأحرق فى البندقية (المراجع) .

(٥) جاليليو : (١٥٦٤ – ١٦٤٢) عالم ايطالى اشتغل بالفلك والرياضة الطبيعية وقد أسس العلم التجريبى الحديث ، اتجه أولا للدراسات الطبية ثم تغلبت عليه رغبة البحث فى الرياضة والطبيعة فاثبت بالتجربة أن مدة ذبذبة البندول ثابتة مهما تغيرت سعتها ، اخترع الميزان المائى وأثبت خطأ تعليمات أرسطو عن حركة الأجسام واكتشف أربعة أقمار للمشترى ودرس أوجه الزهرة والبقع الشمسية وأيد نظرية كوبرنيكوس فى دوران الأرض حول الشمس فحوكم وأرغم على نبذها . (المراجع) .

ضيقة مظلمة ، وعذب تعذيباً شديداً إلى أن تاب عن معتقداته بالكلمات الآتية :

أنا المدعو بـ « جليلو » فى سن السبعين أركع وأنا سجين أمام صاحب القدس وأقبل الإنجيل ، وأعترف بخطأ القول بحركة الأرض ، وأكره الإلحاد وألعنه » .

ومع هذه التوبة والاعتراف ، لم يتم الإفراج عنه ، بل أصدرت محكمة التفتيش المقدسة قراراً بنفيه طول الحياة .

الدين والتقدم : وهناك وقائع أخرى ظهرت مع تقدم العلم والفن ، والحق أن الدين السائد لم يبق صالحاً لمجاراة التقدم العلمى والحضارى ومعاضدته لأنه كان يخشى أن هذا الاتجاه لو استمر لتعرضت تعاليم الكتاب المقدس أيضاً للبحث والتحقيق وانفصمت عرى الدين المصطنع كلها .

يقول ليكى : « كانت مبادئ الكاثوليكية فى رأيى معارضة لتقدم الحضارة منذ البداية ولكن لم تظهر مضارها أول الأمر ، كما أن بعض السموم يهدئ الإنسان قبل قتله ، ولكن النتيجة تظهر فى صورة الهلاك حتى لو لم يكن تأثيره سريعاً .. .. وهكذا كان حال الكاثوليكية » (١) .

وإن صورة النصرانية التى قدمتها كنائس اليونان وروما لم تكن بحيث يطمأن لكى تسلم إليها أزمة الحضارة . (٢)

وبناء على هذا فإن الحضارة الجديدة كانت كلما تحررت من قيود الدين تقدمت فى طريق الرقى ، فنرى عن الطب والعلوم والصناعة والسياسة وفلسفة الأخلاق أنها ساعدت فى تقدم الحضارة بينما أضعفت سيطرة الكنيسة على واقع الناس . (٣)

---

(١) تاريخ اخلاق اوربا ص ١٣٧ .
(٢) ايضا ص ١١ .
(٣) تاريخ اخلاق اوربا ص ١٣ .

موقف الدين من الفساد :

وقد اضطر الدين الجديد (الدين السياسى) أن يتصالح مع الفساد البشرى . والاجتماعى ، وكان يقود الصراع الطبقى مؤيداً للظلم والخلل الاقتصادى ، ومن هذا تسبب فى سيطرة الترف والدعة على المجتمع كله ، فقد كان نصف عدد الإقطاعيين ممثلين للكنائس فى أوربا الغربية فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين .

وحينما بدأت الطبقة الأقطاعية تختفى تحول الاتجاه المذكور إلى الرأسمالية البشعة ، وتشاطر الرأسماليون وزعماء الدين إذلال البشرية ، وقد قضت الطبقتان بترفهما وأثرتهما وتشجيعهما للصراع الطبقى —على الصدق والإخلاص كما أضعفتا الأخلاق التى تساهم فى بناء الأمة ، وسرت فى الناس الخسة والدناءة ، فجعلوا يعرضون عن الأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة ويسارعون إلى المباذل والأخلاق الوضيعة .

وخلاصة القول أن البشرية كانت تنفر وتشمئز من حالة أوربا فى العصور الوسطى ، ومن دور الدين الكنسى فى الحياة . وكان كل تقدم علمى وحضارى قد توقف خلال القرون الوسطى أى خلال هذا العصر الكئيب الذى يمتد من سنة ٤٨٦ إلى سنة ١٤٩٥ م .

الفصل الثانى

حركة الاصلاح الدينى

حركة الإصلاح الدينى فى أوروبا والإسلام :

بدأت حركة الإصلاح الدينى فى أوربا خلال القرن الرابع عشر الميلادى وامتدت إلى القرن السادس عشر .

ويرى الباحثون أن الفضل فى نشأة هذه الحركة يرجع إلى المسلمين وتعاليم الإسلام إلى حد كثير . فقد استفادت أوربا كثيرا من الحروب الصليبية ومن مراكز الأندلس العلمية ، وبعد ذلك تميز كيان حركة الإصلاح الدينى .

يقول جان ديون يورث :

«إن علوم الطبيعة والنجوم والفلسفة والرياضيات التى انتشرت فى أوربا منذ القرن الرابع عشر كانت قد اقتبست من المدارس العربية ، ومن هنا تكون الأندلس الإسلامية هى المؤسسة للفلسفة الأوربية »(١).

وقد تكلم (رينان) (٢) عن التسامح فى تعليم العلوم والفلسفة فى المدارس الإسلامية فقال : « كان النصارى واليهود والمسلمون كلهم يتكلمون بلغة واحدة ، ويرتلون ترنيمة واحدة ويتجمعون حول حلقة درس أدبية وفنية واحدة ، وكانت قد رفعت القيود التى تفرق بين الناس ، فتكاتف الجميع

---

(١) عروج وزوال كا الهى نظام ص ١٧٢ للمؤلف (بالأوردية) .

(٢) أرنست (١٨٢٣ ـ ١٨٩٢) كاتب وعالم أثرى فرنسى له (حياة يسوع) كان من أول المهتمين بالتنقيب فى لبنان وفلسطين (المراجع) .

لإرساء قواعد الحضارة المشتركة، وصارت مساجد قرطبة التى يسكن فيها ألوف من الطلاب مراكز لهذه العلوم والحكم » (١) .

وقد اعترف كسنوور كس بذلك صراحة فقال :

« إن أوربا مدينة للإسلام فى الاكتشافات العلمية ، وبفضل الإسلام نفسه ظهر من علماء العلوم بيكن (٢) ونيوتن (٣) وغيرهما – ولولم يعمم المسلمون الورق والبارود والبوصلة وغيرها من وسائل التقدم لكانت اليوم علوم أوربا وحضارتها على نفس الحالة التى كانت عليها قبل أربعة عشر قرنا » (٤) .

يقول المؤرخ الشهير (ا ، ج ، جرانت) :

« ليس هناك حادث فى تاريخ أوربا كله أكثر إيلاماً من زوال حضارة المسلمين فى الأندلس ، فإنهم أضافوا كثيراً إلى حضارة أوربا ، ولو لم ينته ملكهم فى أسبانيا لأضافوا إضافات كثيرة أخرى » (٥) .

وكما تم بهذه الحركة إحياء العلوم والفنون القديمة المهجورة ، وكما تقدمت أوربا فى العلوم تقدما مدهشاً ، فكذلك ظهرت العناية بإصلاح الدين .

وفيما يلى بعض الأشخاص والحركات التى عنيت بالإصلاح الدينى :

---

(١) المرجع السابق ص ١٧٢ .

(٢) بيكن (نيفن) (شارل) (١٨٧٣ ـ ١٩١٤) كاتب وشاعر فرنسى انشأ (الدفاتر الأسبوعية) من رواد النهضة الروحية فى القرن العشرين .

(٣) نيوتن (السر اسحق) (١٩٤٢ ـ ١٧٢٧) فيلسوف وعلم رياضى وفيزيائى وفلكى انجليزى اكتشف تكون الضياء الشمسى ١٦٦٩ وقوانين الجاذبية ١٦٨٧ .

(٤) المرجع السابق . المكان نفسه .

(٥) تاريخ أوربا ص ٤٣٦ .

١ — حركة « جان كالفن » (JOHNWYCLIFFE) (١) الذى كان مدرساً لمادة الدين فى جامعة أكسفورد فى القرن الرابع عشر الميلادى، وكان ينقد النصرانية المعاصرة نقداً لاذعا، فعزله البابا عن التدريس وطرده من جماعته لهذه الجريمة .

٢ — ايراسمس(٢) (ERAMUS) ، وإيراسمس هو الذى كشف عن فساد الكنيسة ، وألف كتاباً عنوانه « مدح الحماقة » (The PRAISE of folly) هاجم فيه النظام المتبع وأساء كثيراً إلى سمعة البابا .

وكانت حياة إيراسمس من ١٤٦٦ إلى ١٥٣٦ م . وقد ولد فى هولندا ولكنه قضى معظم حياته فى فرنسا وإنجلترا وإيطاليا وألمانيا .

٣ — مارتن لوثر (MARTIN LUTHER) وهو الذى حاول لإصلاح أكثر من غيره ونسبت إليه الحركة الإصلاحية وقد ولد فى ألمانيا عام ١٤٨٣ ، وتوفى عام ١٥٤٦ م . وأهم نقاط الخلاف بينه وبين الكنيسة كانت حول موازين الحق ، هل هى كتاب الله أو اجتهاد البابا ؟

والخلاف قد بدأ بمسألة النجاة، هل تتوقف على (الإيمان) أو على (وثيقة البابا للغفران) ؟

محاكم التفتيش : لقد تعرض المصلحون لأنواع كثيرة من التعذيب ، فقد طردوا من الجماعة الصليبية ولعنوا وسبوا ، ولكن جهودهم أثمرت فتأسست فرقة « البروتستانت» فى ألمانيا وكانت أرقى من فرقة الكاثوليك ،

---

(١) كلفين : (يوحنا) (١٥٠٩ ـ ١٥٦٤) : مصلح فرنسى ، نشر فى فرنسا ، وسويسرا مذهبا حمل اسمه . أنشأ فى جنيف حكومة ثيوقراطية . له (الأس المسيحية) جعل منه أكبر لاهوتى عرفه الاصلاح (المراجع) .

(٢) (ديزى ديريوس ايراسمس) ولد فى ١٤٦٦/١٠/٢٦ م فى هولندا ، وتوفى فى ١٥٣٦/٧/١٢ م فى بازل بسويسرا وكان أكبر عالم فى علوم الآباء (آباء الكنيسة) والدراسات الكلاسيكية بشمال أوروبا .

(دائرة المعارف البريطانية) ... المراجع .

وتم انتشارها فى أوربا على نطاق أوسع إلى أن دخلت فيها معظم بلدان أوربا وأمريكا .

ولا شك أن بعض الإصلاحات قد دخلت فى نظام الكنيسة بعد ظهور هذه الفرقة ، ولكن ، أيضاً بدأت معها سلسلة طويلة من إراقة الدماء باسم الدين ، فكلما غلبت جماعة الكاثوليك قتلوا أتباع البروتستانت ، وكلما غلبت البروتستانت أراقوا دماء الكاثوليك .

وقد أقامت أوربا كذلك محاكم التفتيش لتعذيب هذه الفرقة الجديدة (البروتستانت) وكانت عبارة عن محاكم دينية أنشئت فى سنة ١٤٨٠ م لهدف معين ، وقبل ذلك أنشئت هذه المحاكم فى قسيطلة بأسبانيا سنة ١٢٩٠ م

وقد كان المجرمون المقدمون لهذه المحكمة على نوعين :

أولا : المعارضون لطريقة حياة البابا ولدينه .

ثانياً : المساهمون فى التقدم العلمى والحضارى على العكس من الدين السائد الجامد .

وقد أغلقت هذه المحاكم سبل الإصلاح الدينى والتقدم العلمى والحضارى إلى حد كبير خلال عدة سنوات ، وكذلك قتلت ألوفا من دعاة الإصلاح والتقدم بوحشية غريبة بينما طردت الكثيرين من النصرانية ولقبتهم بالهرطقة وأحرقت كثيرين أحياء وعذبتهم تعذيبا وحشياً .

آثار الإصلاح الدينى :

ومن حسن الحظ أنه قد وجدت حركة الإصلاح الدينى عصرا اتجهت فيه أوربا إلى المجد بعد انحدارها إلى حضيض الإنحطاط ، وقد سارت أحوالها الداخلية إلى طريق الصلاح وحاولت تطوير أفكارها القديمة وتصوراتها للحياة .

وعلى هذا فقد ظهرت آثار حسنة عميقة من حيث المجموع ، بل قد ذهب بعض المؤلفين إلى أن أساس جميع الحركات التقدمية فى أوربا قد قام على الدين الصحيح .

وقد أثبت وليام دلتاى بأدلة مختلفة أن الدين هو المؤثر فى نمو الحركات العلمية والفلسفية فى ألمانيا وإنجلترا وفرنسا ، وأن الروح الجديدة للغرب نتيجة تصور دينى واسع .

ويرى البعض فى نظرية التطور أنها مؤسسة على التطور الدينى ، فإنه يوجد فيها الارتقاء من الأدنى إلى الأعلى ، وأعلى الكل هو الله(١) .

والقول بوجود التصور الدينى فى هذه النظرية يجعلنا نتساءل حول ما إذا كان الإنسان فى مراحله البدائية (الحيوانية) قد وجدت لديه العاطفة الدينية أو لا ؟

وقد رد علماء النفس على هذا التساؤل بأن صلة العاطفة الدينية لاتتعلق بعاطفة واحدة ، بل إنها نتيجة غريبة معقدة لامتزاج الجبلات العديدة وتفاعلها فيما بينها ، وليس من الضرورى أن تكون دينية فى نوعها ، فإن شيئين اثنين أو عدداً من الأشياء حينما تكون كل على حدة تكون خواصها وآثارها مختلفة عن خواصها وآثارها بعد الاتحاد – كما هو معروف – ! !

كما أن اختلاط صفتين متباينتين يولد صفة ثالثة تختلف عن الصفتين الأخريين .

وعلى هذا فإن (الغرائز) المذكورة ، وإن لم تكن دينية فإن التطور التدريجى وعملية الفعل والانفعال قد أحدثت عاطفة دينية دخلت فى جبلة الإنسان .

---

(١) مقدمة بستالوزى فى فلسفة التربية وتعليم .

– وقد كتب أغلب المؤلفين فى أوربا أن الغريزة الدينية – من صفات لإنسان الأساسية . وقال الدكتور (رينان) : إن الغريزة الدينية طبيعية فى الإنسان ، كما أن بناء العش طبيعى فى الطيور .

ويؤكد (نيتشة)و(كانت)(١)و(يستالوزى) وغيرهم من الفلاسفة : أن جوهر النفس الإنسانية هو الإحساس الدينى ، والدين مثل الروح للحياة الحضارية .

أخطاء حركة الإصلاح :

وسواء تم الاعتراف بآثار عامة واسعة للدين بعد الإصلاح أم لا ، فإن الحقيقة التى لا يمكن إنكارها أن الإصلاح كان يتضمن من الناحية الدينية الأخطاء التالية :

١ – إن هذا الإصلاح قد فشل فى تحريك أوتار الحياة التى تغلب العقل على العواطف .

٢ – وإنه قد عجز عن إيجاد كيفية صحيحة للإيمان تنشىء الإحساس بالحقيقة – لاشعوريا وتوصل إليها .

٣ – لم يكن هذا الإصلاح مطابقاً للسنة الطبيعية كما أنه لم تبذل الجهود المخلصة لجعله كذلك .

٤ – وأيضا فإنه لم يحاول بعضهم ربطه بالناحية الإيجابية للشئون الاجتماعية والحضارية .

---

(١) كانت عمانويل : (١٧٢٤ – ١٨٠٤) فيلسوف المانى ، يعد من أعظم الفلاسفة جميعا ، ولد فى كونجزبرج • حيث تعلم وعلم بجامعتها المنطق والميتافيزيقية • فند مذهب الشك الذى انتهت اليه الفلسفة عند هيوم ، وأهم مؤلفات كانت (نقد العقل الخالص) ، و (أسس الجانب الميتافيزيقى من الأخلاق) و (نقد العقل العملى ، و (نقد الحكم) وكلمة نقد هنا معناها التحليل الذى يستخرج الجوانب المتضمنة فى قضايا المعرفة ، ولهذا تسمى فلسفته الفلسفة النقدية (المراجع) •

٥ — ولم يمزج هذا الإصلاح بين العقل والقلب حتى تحل مشكلات الحياة فى ضوئه ولم يبذل الجهد لإيجاد التوازن السليم بين الدين والدنيا .

— والأصل أن هذا الإصلاح كان محدوداً جداً ، وكان معظمه يقوم على أساس معارضة البابا فى نفوذه ، وقد انحصر تأثيره فى القضاء على مفاسد معدودة — فقط — كرد فعل ، وذلك مثل التحرر من عبودية البابا ، وإخراج تماثيل مريم وعيسى من الكنيسة ، وما يشبه ذلك من الأمور التى انتشرت خطأ باسم الدين ، ولم تكن تتعلق كثيرا بالناحية الإيجابية لشئون الاجتماع والحضارة .

شهادات تاريخية :

وتدلنا التصريحات التاريخية الآتية على بعض صور الضعف والخطأ فى هذه الحركات الإصلاحية :

١ — يقول هـ . و ويكمن :

لقد فشلت حركة الإصلاح هذه فى القضاء على التفرقة العنصرية واللغوية ، وكذلك لم تستطع القيام بجمع مسائل الاجتماع والحضارة وترتيبها وفق السنن الطبيعية . وذلك : « أن فرقة البروتستانت ظهرت فى أول أمرها كثورة أخلاقية عظيمة ، فقد عارض بعض الناس بفطرتهم الدينية والخلقية البدع المستحدثة فى الدين ، والعادات غير الملائمة التى تعذر إصلاحها . وبما أن أساس قيام حركة البروتستانت كان على الرفض ورد الفعل فإنها نشطت فى أعمال الهدم والسلب ، ولئن كان قد سهل على أعضائها إصلاح بعض الأخلاق والهجوم على الدين الفاسد الذى أسىء التعريف بأصوله . فإنه حينما جاء دور وضع الدستور ، وتقعيد المبادىء ، وشرح الحقائق فقد تبين الضعف التنظيمى للحركة .

ويقول ويكمن فى موضع آخر :

إنه فى مدة قليلة انقسم هذا المذهب (البروتستانت) إلى قسمين عرفا باسم (لوثر ، وكالفين) وحصلت بينهما خلافات تبين منها أن كل فرقة

تميل إلى مزيد من القيود والخلاف » «وقد تأسست هذه الحركة أيضا على أسباب مختلفة معقدة ، وقد لعبت التفرقة العنصرية دورها ، ووقف المتكلمون باللغات الرومانية ، الإيطالية والفرنسية ، الأسبانية ، البرتغالية والسلافيون ضد مذهب البروتستانت على سبيل العموم بعد تردد(١) » ، وكان هذا لعوامل عنصرية .

٢ — لقد أيدت هذه الحركة الحكومة والأغنياء فى ظلم الفلاحين والعمال ، ومن هنا فقدت الحركة شعبيتها لدى العامة .

وفى هذا يقول ا . ج . جرانت :

« إن لوثر عارض الفلاحين بكتاباته وخطبه الصارمة أيام ظهور حركة مقاومة الظلم ، وقد طالب لوثر الأغنياء بأن يقمعوا هذه الضجة بشدة حتى أنه لم يمنع من الظلم ، ولما استعان الفلاحون بلوثر عارضهم بدل أن يغيثهم ، وقد أدى ذلك إلى ذهاب شعبية هذه الحركة ، ومنذ ذلك الوقت اضطر لوثر لأن يعمل مع الطبقة الوسطى والعليا وارتبطت حركته بالحكومة ، واستمرت هذه الصفة فيما بعد(٢) » .

٣ — الفشل فى تنظيم الدراسة والتعليم وفق تطور الزمن .

وفى هذا يقول (هـ . و . ويكمن) :

إن مذهب البروتستانت وإن ظهر بمظهر تجديد العلوم ، فإنه لم يتمكن من تحقيق هذه المطالب كما ينبغى ، فإنه وإن أعد العلماء لم يفعل شيئا للعامة(٣) .

٤ — ردود الأفعال الشديدة من طبقة الشعب لانعدام برامج خيرية شعبية .

---

(١) عروج فرانس مضلفة ايج أو يكمن ايم .
(٢) تاريخ أوربا لمؤلفه ا . ج كرانت ص ٥٠٢ .
(٣) عروج فرانس ص ٣٥ .

وفى هذا يقول (ويكمن) :

« إن لوثر أقام صلات وطيدة مع الرؤساء والأمراء بدل الشعب ، واستعان بهم فى معاركه البدائية ، واعتمد عليهم فى الأيام الأخيرة . وقد ظهر لهذا رد فعل فى أوربا ضد مذهب البروتستانت فى أواخر القرن السادس عشر ، وكانت هذه الحركة أيضاً مثل الحركات الدينية والوطنية الكبيرة مبنية على أسباب مختلفة ومعقدة(١) » .

والحاصل أن هذا الإصلاح كان قاصرا على بعض العادات والسلوكيات ولم يصلح دستورا واضحا للحياة - كما أنه لم ينجح فى تحديد مستوى للأعمال والأخلاق يقوم على التغيير الداخلى :

يقول جرانت :

« إن الدين كان مرتبطا بالاجتماع بحيث إن اختلال الدين كان يستلزم اختلال الحالة الاجتماعية والسياسية ، وكان لوثر يؤثر تجنب هذا(٢) » .

وبسبب هذا التقصير وجد المعارضون فرصة القول بأن « تعاليم لوثر قد أدت إلى الفوضى والخلق السيىء ، ولم تتمكن من إصلاح المستوى الخلقى للكاثوليكية(٣) » . وكان فى قولهم نصيب كبير من الصحة ! !

حركات الإصلاح الأخرى :

وقد نشأت فى العصر البروتستانتى (القرن السادس عشر) - إلى جانب البروتستانتية حركات أخرى باسم الإصلاح الدينى ، وأثرت فى نطاقها إلى حد ما :

---

(١) عروج فرانس ص ١١ ، ٤١ .
(٢) تاريخ أوربا ، ١٠ ج كرانك .
(٣) المرجع السابق .

وذلك مثل حركة زوينكلى(١) (ZWINGLI) وحركة كالفن (CALVINI) (٢) ويقظة الفرقة الكاثوليكية المتكررة التى عرفت باسم «الإصلاح المعكوس» أو (رد الفعل الكاثوليكى الرومانى) ونشأة الرابطة اليسوعية .. وغيرها.

ولكنها جميعا كانت من حيث الأساس (فعلا) أو (رد فعل) لحركة أخرى ، ولم تنجح فى الابتعاد عن المباحث التى لا تتعلق بحقائق الحياة مثل (العشاء الربانى) وغيره ، ولكن مع ذلك لا يمكننا أن نجحد آثارها النافعة بصفة عامة .

ولقد كانت للأحوال السياسية المحلية والمصالح الوطنية والطبقية يد لا تجحد فى انتشار هذه الحركات ، ولو لم تكن هذه الأحوال ملائمة لما أمكن أن تحتل مكانتها الحالية فى التاريخ .

مع ضرورة الاعتراف بأن الحركة (الكالفينية) قد امتازت بميزات أكثر بالنسبة لغيرها من حيث إنها امتازت بالعناصر التالية :

١ – إنها ركزت بدرجة معقولة على الضبط الخلقى ، وأنشأت محكمة الرقابة الخلقية .

٢ – قامت حكومة الكنيسة فى ظل الحركة الكالفنية على أيدى جماعة من القساوسة والشعب معاً ، فالجماعة الحاكمة كانت تتضمن ستة قساوسة

---

(١) زوينكلى : ١٤٨٤ – ١٥٣١) : مصلح سويسرى بروتستانتى ، كان قسيسا متعلما ومن دعاة حركة الانسانية ، وغدا مقتنعا بأن الدين يجب أن يشتق رأسا من الكتاب المقدس ، وبدأ فى مدينة زيورخ باتباع الطقوس البروتستانتية ، وكتاباه (الأرتيكيليس) و « القضايا السبع والستون » ، اللذان أصدرهما ١٥٢٣ يوضحان عقائده تماما ، وقاوم استعمال الطقوس والصور والتماثيل بالكنائس ، وكذلك عارض فكرة عزوبة رجال الاكليروس والرهبنة وقيام البابوية وحبذ المسئولية الفردية فى المعتقد وأيدته السلطات المدنية فى زيورخ ، وهكذا أصبح زعيما بروتستانتيا بارزا فى جنوب ألمانيا وفى معظم أرجاء سويسرا . (المراجع) .

(٢) سبق التعريف به .

وأثنى عشر شخصا من كبار رجال الأمة . فالحكومة كانت دينية مدنية معاً .

٣ ــ وقد كان توجيه كالفن نفسه يقوم على التفريق بين الحكومة والكنيسة دون أن تكون الحكومة مخولة لأن تتدخل فى شئون الكنيسة(١).

وهذه التفرقة بين الدين والسياسة قد وجدت فى أواخر عصر لوثر أيضا ، وكأن طريقة فصل السياسة عن الدين كانت تتدرج فى طريقها إلى حركة الإصلاح الدينى بدءاً من هذا الوقت أى بدءاً من حركة كالون، وكان فشل الدين التقليدى يظهر بوضوح كما يعبر المؤرخ الشهير (ليكى) عن ذلك بقوله : « نضطر للقول بأن الفرصة التامة للاختيار قد سنحت للنصرانية ولكنها فشلت فى هذا الامتحان »(٢) .

مقومات حركة الإصلاح :لا نستطيع أن ننكر أن ضعف الدين وفشله كان أهم مقومات نجاح حركة الإصلاح ، ومن ناحية أخرى كانت هناك مقومات لنجاح حركة الإصلاح نلخصها فى المقومات التالية :

١ ــ إن حركة الإصلاح الدينى وسعت نطاق الفكر وأذ[illegible]ت فى القلوب عاطفة الشغف العلمى ، ولكنها استهدفت الحياة الدنيوية ووضعتها فى الموضع الرئيسى وهذا جعل الكثير من الطموحين وعباد العقل والشئون الدنيوية يلتفون حولها .

٢ ــ لم يكن رجال العصور الوسطى يعرفون كثيرا عن حرية اليونان وحبهم للجمال وترفهم ودعتهم ، ولكن حينما اتسعت المعلومات عن علوم اليونان القديمة وتاريخهم بسبب هذه الحركة تنبه الناس إلى ذلك وحاولوا إعادة عصر الترف اليونانى السابق .

---

(١) تاريخ أخلاق أوربا ص ١٣

(٢) المصدر السابق .

٣ - ولقد حدث تحول كبير فى اتجاه الفنون الجميلة ، وبدأ الميل إلى تماثيل اليونان والرومان القدامى ، فصار الرسامون يتتبعون كل ماهو جميل ولطيف وفق الطراز الكلاسيكى القديم ، وبرزت صور ذوى الجمال من الرجال والجميلات من النساء بحيث استغرقتهم عاطفة الجنس ومظاهر الترف فى هذه الدنيا .

٤ - وقد خلق زوال نظام الإقطاع حياة مدنية خاصة ، ولون النظام الاجتماعى بلون معين فظهرت صور مختلفة للاختلاط المشين ، مثل حفلات الشاى ومجالس الرقص والغناء والعروض السافرة للفنون الجميلة .

٥ - كما كانت قد تمت دراسة عالم الطبيعة فى عصر لم يوجد فيه دستور واضح لبناء الشخصية وفق مثال أو نموذج عال يهدف إلى هدف سام ، وكذلك لم يوجد اتجاه لوضع حدود صحيحة للفكر والعمل من شأنها أن تجنب الناس الغلو فى عبادة الهوى الجامح والعقل الهائم .

٦ - ولقد تم إبراز التراث العلمى للعصر القديم بجهد بالغ كما تم تطويره فى صورة مدهشة ، فانجذب الناس إليه وأصبح مقوما من مقومات حركة الإصلاح الدينى .

٧ - وقد شملت الدراسة والبحث كل ما اتصل بالنفس الإنسانية ، بينما انحصرت الدراسة سابقاً فى العلوم الدينية .

٨ - كما تشكلت أساليب جديدة للصناعات والمهن والتجارة ، واكتشفت أسواق جديدة للتجارة بجهود الملاحين المغامرين مما لم يكن يتصوره أحد .

٩ - وقد بدأت اختراعات جديدة تظهر على الناس ، كما تم بحث نواح جديدة فى العلوم والفنون . هذا بينما كانت دراسة علم الطبيعيات فى العصور الوسطى تعلم السحر ، وكان الدارسون ينسبون إلى الجن ، لكن فى عصر الإصلاح ظهرت العناية بجميع هذه العلوم على أسس علمية .

١٠ – ولقد حدث انقلاب عظيم فى الحياة الاجتماعية بسبب استخدام المطابع والبارود ، فانتشر بذلك العلم كثيراً ، ووصلت إلى الشعب المعلومات التى كان قد استأثر بها قبل ذلك العلماء والأغنياء . وكان استخدام البارود قد أفسح المجال للوظائف العسكرية ولم تبق الحاجة ملحة إلى جيش الأمراء المستبدين مثلما كان فى السابق .

١١ – وفى ظل حركة الإصلاح بدأت سلطة الملوك والأغنياء تضعف يوما بعد يوم وذلك بعد أن كانت قائمة بسبب الجيش والأرض (وهى وسيلة الحصول على الثروة)ولم تبق للأرض أهميتها السابقة بتوفر وسائل الدخل الأخرى ، وقد فقدت جيوش المرتزقة مكانتها بسبب ظهور الوظائف العسكرية الدائمة .

١٢ – وأيضا فى ظل حركة الإصلاح بدأت الرحلات البحرية وحركة الكشوف الجغرافية كما تأسست المستعمرات الأوربية . إلى غير هذا من مقومات نجاح حركة الإصلاح التى لايسهل حصرها (١) .

الدين والحوادث الجديدة :

لقد اتضح مما سبق أن عالما جديدا قد ظهر بأفكاره وأخيلته وعواطفه ومشاعره وكانت الحاجة ماسة لتوجيهه وإرشاده إلى دين لايكون محدودا ، بل تحتوى تعاليمه على مايشبع جميع نواحى الأنفس والآفاق ، وذلك بإحداث تغيير فى عالم الأنفس يكون ملائما للسنن الكونية ، وداعيا لدراستها كما يحل جميع مشكلات الاجتماع والحضارة فى جوّ العدل والرحمة.

ولكن للأسف فإن العالم الجديد لم يحظ بدين مثل هـذا الدين التام لأسباب عديدة ، أما الدين الذى سار معه فقد فشل فى أداء مسئولية التوجيه والإرشاد لضيق المجالات التى يعالجها ولسطحية نظرته للأمور كما سبق أن بينّا .

---

(١) اليوزثيجر : تاريخ أوربا .

نتائج المباحث السابقة :

وفيما يلى خلاصة المباحث السابقة :

(١) إن حركة الإصلاح الدينى (النشأة الثانية للدين) مدينة للمسلمين لى حد كبير ، وذلك مع وجود عناصر من الحضارة الإغريقية والرومانية فى تكوينها .

(٢) وبما أن الاتجاه المادى كان سارياً فى أساس حضارتى الإغريق والرومان ، فقد دخل هذا الاتجاه المادى فى حركة الإصلاح مع تأثير خفيف للعناصر الروحية .

(٣) ولقد كانت عناصر حركة الإصلاح الدينى (اللوثرية) واسعة متنوعة بحيث تعذر ضمها إلى دين ضيق مظلم هو النصرانية الكنسية .

(٤) ولم تكن الصورة المعدلة للدين التقليدى صالحة لأن تستعيد قوتها لضائعة وتقوم بالتوجيه والإرشاد ففشل الدينان معا القديم والجديد .

(٥) لم يتميز الدعاة الدينيون بالصدق الخلقى ، بحيث تكون شخصياتهم جذابة . وهكذا سنحت فرصة الظهور لمقومات حركة الإصلاح التى ذكرناها سابقاً ، وبهذا تضرر هدف الدين الحقيقى .

توضيحات لفهم حركة الإصلاح :

ونذكر فيما يلى بعض الإرشادات التوضيحية التى تساعد على فهم حركة الإصلاح الدينى وتحليلها .

أولا : توجد فى المرحلة التأسيسية للحياة الاجتماعية دلالات كثيرة على نوعية المستقبل ولكن هناك حاجة إلى الدقة والبصيرة البالغتين لإدراكها ولتحديد الاتجاه السليم المؤدى إلى المستقبل ، فلربما فى بداية الأمر لا يظهر العنصر الذى يلعب دوراً هاماً فى البناء الاجتماعى للأمة ، بينما تظهر عناصر أخرى كثيرة بصورة بارزة، ولكن لا يبقى لها وزن فيما بعد بسبب ضغط الأحوال والظروف

ثانياً : مرحلة الحياة الاجتماعية التى تستعد فيها هذه الحياة للانتقال من موقف إلى موقف آخر تكون هذه المرحلة أهم وأدق ، فلو تيسرت فيها الغاية السامية للفكر والعمل . وتحدد لها الاتجاه السليم فإنه يسهل توجيه القوى إلى طريق الصدق .

ولو كانت الغاية سطحية وسنحت للفكر والعمل فرصة النمو فإنه لايغير اتجاه استعمال القوى فحسب ، بل يؤدى فيما بعد إلى تغيير الحقائق المعترف بها ، ذلك لأن مقتضيات العقل المتحرر والهوى الجامح لاتنتهى إلا بمثل هذه النتائج .

ثالثا : إنه لاسبيل — خلال مرحلة بناء عالم جديد للفكر والسلوك — إلا بتحريك الأوتار التى يسيطر فيها العقل على العواطف ، بحيث يقع بين العقل والقلب انسجام يؤدى إلى الوجهة الصحيحة فى الأمور المعاشية المهمة .

وإنه لو أهملت هذه الناحية ، ولم توجد الكيفية الصحيحة للإيمان ولإشباع العاطفة التى تحمل على الإحساس بالحقيقة بطريقة (اللا شعور) — لما أدركنا إلى أين يتجه بنا تيار الحياة وبأية سرعة سيسير ؟ ويخشى أن تفقد كلمات (القيم الأساسية) و (الحقائق الأبدية) معناها ، ويتم التعبير عن الحياة فى صورة جديدة وتحل المشكلات فى ضوء هذا التغيير الجديد للحياة !

رابعا : إن عجلة الحياة لاتعرف التوقف ، بل إنها إما أن تتقدم أو تتأخر ، وتحتاج عجلة الحياة إلى قائد خبير بالمنعطفات والمواقف ، ماهر فى السيطرة على فرامل السيارة ، قادر على إيقافها .

ولو لم تتوافر هذه القيادة الخبيرة ، وفقدت السيطرة على العواطف والأهواء — فإن قوة البخار (الأحاسيس والعواطف) ستقود عربة الحياة إلى حيث تريد ، ثم تنعدم السيطرة عليها .

وفى ضوء هذه الإيضاحات ، وحينما نصل إلى أعماق حركة الإصلاح (اللوثرى) ونتعرف على أرضيتها المعقدة الخفية فإنه ستتضح لنا الحقائق التالية :

أولا : إن الأشياء التى تم استيرادها فى حركة الإصلاح من الحضارة الرومانية واليونانية كان من أهمها (إلى جانب العلوم والفنون الأخرى) حرية الفكر والضمير ، والاتجاه المادى ، وتربية الذوق الجمالى ، وهذه الثلاثة وإن كانت ضرورية للحياة إلا أنها خطيرة أيضاً .

فلو سنحت لها فرصة « التمكن والازدهار » فإنها ستؤدى إلى نتائج بالغة السوء ؛ بينما لو تم الحفاظ على الضوابط والقيود الطبيعية فى استخدامها لأمكن أن تكون أنفع وأكثر فائدة من غيرها .

وهذه العناصر الثلاثة السابقة أخذت مكانتها المستقلة فى حركة الإصلاح الدينى ، ووجدت مجال التمكن والازدهار دون مقاومة ذات بال .

وبما أن القوى الجارية كانت متجهة فى بداية حركة الإصلاح إلى البناء فإنه لم تظهر آثارها ، بحيث تحمل على التفكير الجاد ، وعلى إيجاد أساليب للضبط والرقابة . ولكنها حين وجدت ظروفاً أكثر ملاءمة وبدأ جموح العقل والهوى يحرق عش السلام البشرى — بذلت جهود لم تتعد (الوعظ والإرشاد) للسيطرة على الموقف ، ولكن كان الوقت الذى يمكن أن يلعب فيه الوعظ والإرشاد دوره قد انتهى .

ثانياً : وعلى مستوى النمو العقلى والفكرى فى حركة الإصلاح كان الأمر يحتاج لكثير من التوجيه نحو دين حى سام يلائم حقائق الحياة ولا سيما فى مجال الفكر والتطبيق ، شريطة أن تعتنى تعاليمه ببحث الأسرار الكامنة فى الطبيعة والكون ، وفى عالم الأنفس .

إن مثل هذا الدين كان يمكن أن يمنح حركة الإصلاح منهجاً ساميا للفكر والعمل .

وإنه كان يستطيع أن يضم عناصر حركة الإصلاح الديني المتنوعة الانسجام والتآلف .

ولكن سياسة الدين النصراني السائد المعادية للحياة ، والعداء الناشيء (بالحروب الصليبية) قد حرما العالم الحديث من هذا الدين .

ومن ناحية أخرى كانت الأمة الحاملة لهذا الدين (وهي الأمة الإسلامية) قد تجاوزت عصر شبابها إلى شيخوختها ، وبذلك لم ير الناس (هذا الدين) في صورته الأصلية الصحيحة ، مع أصالة سموه وتقدمه وكماله .

وبناء على هذه العوامل ، لم يتمكن (العالم الجديد) الذى صنعته حركة الإصلاح (اللوثرية) من قبل توجيهات هذا الدين السليمة ، مع أن الأفكار الثاقبة المطلعة على الحقيقة كانت تدرك أن الأفكار السامية والمؤثرات الخلاقة التى تم اقتباسها عن طريق (الحروب الصليبية) وبسيطرة من هذا الدين — قد لعبت دوراً هاماً جداً فى بناء العالم الحديث .

ثم إن هذا العالم الجديد لم يترك — صراحة — الدين النصرانى التقليدى ، مع سياسته القاضية على الحياة ، بكل معانيها الإيجابية ، بل ظل يتسلى به (١) مع أنه من البديهى أن الفراغ الذى ينشأ بترك الدين فى الحياة ، لاينسد إلا بالدين ، وأمام التصور الجديد لوظيفة الدين كانت هناك حاجة ملحة — فى ظل سيطرة (اللوثرية) الإصلاحية — إلى دين يتخلى عن بعض مبادئه الأساسية ويتفاهم مع أفكار الحياة الحديثة ويتفاعل مع الحياة الاجتماعية بكل جوانبه التى تنبنى عليها حسنة كانت أوسيئة ، ويساعد على تهدئة النفوس البشرية ، شريطة ألا يتدخل فى الشئون الأخرى . ومن الواضح أن الدين

---

(١) الحق أننى أرفض وجود حضارة نابعة من المسيحية (النصرانية) وحضارة أوربا لا علاقة لها بالنصرانية ، بل قامت على أنقاضها ، وتمسك أوربا بمؤسسة (الدين) هو نوع من التسلى للعجائز وللفارغين .. أما فى خارج أوربا فتصدير النصرانية مجرد مقاومة للاسلام لأنه لا يقاوم الدين الا بالدين . وهو كذلك ممهد للاستعمار الأوربى (المراجع) .

النصرانى - بعد تدخل بولس فيه ثم بعد ظهور اللوثرية- كان يتمكن من أداء هذه المهمة بطريقة حسنة ومقبولة .

وفى ظل هذه التركيبة الغريبة تعيش أوربا اليوم .

وثالثاً : إن التظاهر بالعقيدة الميتة وببعض العادات والسلوكيات بهدف تسلية النفس - لايضمن للدين البقاء والاستمرار ، بل إن الأمر الرئيسى الذى يضمن للدين بقاءه هو جوهر الشريعة وأفكار الدين الأساسية .

وبدون أن تتلون الحياة بهذا اللون لايستطيع الدين أن يحدث انقلابا فى مجال الفكر والعمل وأن يحتل فى الحياة المكانة المرموقة التى يستحقها .

ومكانة الدين فى حركة الإصلاح اللوثرية لم تكن بحيث يستطيع أن أن يغلّب العقل على العواطف ، ولا أن يحدث الكيفية الصحيحة للإيمان واليقين .

والحقيقة أن ترقيع الدين الذى فقد قوته الدافعة وشوهت أسسه وانتهت صلاحيته الفعلية فى مجال الفكر والعمل إنما يعنى بنفسه معاداة الدين .

ولعل كتاب قاموس حركة الإصلاح الدينى لم يعلموا حقيقة أن الصور الناقصة والميتة للدين النصرانى هى التى مهدت للعصر اللادينى إلى حد كبير .

ورابعاً : لم يتوفر فى مرحلة حركة الإصلاح قوادمهرة يقودون عجلة الحياة ، ويقدرون الأحاسيس والعواطف (التى تشبه قوة البخار) تقديراً سليما ، ويضعون دستوراً لاستخدامها وتوجيهها ، حتى يتم صرف هذه الطاقة بطريقة معتدلة ، أى بدون إفراط أو تفريط .

- القواد الذين برزوا فى ذلك الوقت كانوا متأثرين جداً بحرمان الأمة وفشلها السابق ، حتى إنهم لم ينظروا إلى شىء سوى مهام القيادة ، والحاجات العاجلة المطروحة أمامها ، ولم يهتموا باتجاه السير ولا بسرعته .

وفى الوقت نفسه تسلمت مجموعة أخرى من القواد زمام القيادة وهى خائفة ومشفقة من تلون الأحاسيس والعواطف ومن سيطرة العقل حتى إنها لم تستطع أن تضع دليلا لمنهج الحياة ، متعالية بذلك فى رأيها على المستوى السائد الذى تنجذب الحياة إلى مجراه .

وعلاوة على ذلك كان هناك عامل آخر أساسى لعب دوره فى إضعاف الاتجاه الدينى ، وهو عامل البيئه الفاسدة الذى كان مسيطراً على الحياة الأوربية إبان العصور الوسطى .

وخامساً : إن حركه الإصلاح الدينى بدأت وتطورت فى إيطاليا ، ومن هناك تم نشرها فى بلاد أوربا كلها .

والواقع أن إيطاليا كانت بموقعها وأرضها أنسب مكان لهذه الحركة الجديدة ، فإن أثر الحضارة الرومانية كان أبرز فيها من غيرها ، ولقد كانت تقع فيها (روما) العاصمة مع ميولها الجنسيه ونزعاتها الجسدية المعروفه ، والتى فصلها أبلغ تفصيل كتاب سقوط الإمبراطوريه الرومانيه لمؤلفه (جيبون) .

وفى الوقت نفسه كانت آثار النهضة الفلسفية لاتزال مسيطرة على روما بحيث إن مصباح الفلسفه حينما انطفأ فى أثينا لم تطلع شمس الحكمه إلا فى خليفتها روما .

ومن ناحيه أخرى وجدت سوابق للتفريق بين (القانون) و(الأخلاق) ساهمت فى تعميق التفرقة بين الأخلاق والقانون فى التنظيم القانونى العام ، مما كان له أثره المدمر على سير الحياة الجديدة .

ونتيجة هذه الأحوال والمؤثرات لم تتوافر أية قوة للتفكير الدينى فى نشأته الثانية .على يد حركة الإصلاح اللوثرية وبالتالى انتشر التفكير اللادينى للعوامل والأسباب العديده التى ألمعنا إليها .

الفصل الثالث

العصر الحديث وأحواله الخاصة

يمتد هذا العصر من القرن السابع عشر إلى القرن التاسع عشر الميلادى ، ويبدو فيه اتجاه حركة الإصلاح الدينى السالف الذكر مثمراً إلى حد كبير ، بينما تنتظم الناس حياة جديدة تعارض الحياة القديمة إلى حد بعيد .

ومن الحقائق المعترف بها أن أى نظام فى الدنيا ، ناقصاً كان أو كاملا لا يستطيع أن يعيش بدون (أيديلوجيته) المستقلة ، ومن هنا كان على النشأة الثانية للدين النصرانى ، وهى ما يعرف بحركة الإصلاح اللوثرية أن تعمل للحفاظ على ذاتها ، وإلا انهدم بناؤها الفكرى والتطبيقى فى مدة وجيزة .

ونسوق فيما يلى بعض نظريات (العصر الحديث) التى تطورت فى صورة (فلسفة للحياة) بحيث تبدو مؤثرة فى نواحى العلم والعمل .

ويتبين لنا من دراستها وجود الاتجاهات اللادينية مسيطرة عليها ظاهرة أو خفية .

ومن هنا يسهل الحكم بأن (الدين الحقيقى) لم يكن ممكنا له أن يتفاهم مع هذه الاتجاهات ولم يكن ممكناً له — أيضاً — أن يحقق أهدافه بعد انضمامه إليها وتشربه لها .

وهذه النظريات والمذاهب هى :

١ — نظرية القومية والوطنية .

٢ — المذهب الطبيعى .

٣ — الحضارة المادية .

نشأة النظرية القومية : تنسب هذه النظرية إلى (ماكيافيلى) (١). (MacKiayefli)
مع أنه ليس موجدها فى الحقيقة ، بل إنها تصور (رومانى) تم استيراده مع العلوم والفنون الأخرى التى استوردت من روما . ولكن (ماكيافيلى) هو الذى عرضها فى العصر الحديث بأسلوب جديد ، وكان المجتمع الأوربى لفراغه قد رحب بها كفلسفة اجتماعية فانتسبت إليه واشتهرت به .

تحليل النظرية القومية :

يرى (ماكيا فيلى) أن الدولة القومية هى أعلى كيان فى (الكون) وهى الهدف الأصلى للإنسان وغايته المنشودة . فالإنسان فى نظر ميكيافيلى (القوة للقوة) بصرف النظر عن أنها تعمل فى أية جهة . و(الدولة) فى رأيه .ليست (أخلاقية) ولا (قانونية) بل إنها (سياسية) فقط ، وبهذا المقياس ينبغى أن ينظر إلى جميع أعمال الدولة .

ومن هنا فإنه لا حاجة للنظر إلى الدين أو الأخلاق أو القانون ، وميكا فيلى يقول فى ذلك :

« ينبغى للرئيس أن يعمل فى أكثر الأحيان خلافا للاتفاقيات ، ولمبادئ حسن النية ، وللإنسانية ولقواعد الدين مادام ذلك يهدف إلى الحفاظ على الدولة وبقائها . (٢)

ويقول فى موضع آخر :

« حينما يتعرض كيان الدولة للخطر فلا يصح إطلاق مصطلحات العدل والظلم والرحمة والقوة والمدح والذم ، وينبغى أن لا يحول شىء من هذا طريق

---

(١) نيكولا ماكيافيللى (نيقولا ٣ مايو ١٤٦٩ ـ ٢١ يونيو ١٥٢٧) : سياسى ايطالى ، مؤلف ولد فى فلورنسه (ايطاليا) يقول مذهبه : (ان الغاية تبرر الواسطة) فضرب المثل بخداعه وتلونه ، له كتاب الأمير (المراجع) .

(٢) تاريخ أوربا ص ٢٨١ .

العمل ، وأن يصرف النظر عن جميع الموانع الدينية والأخلاقية والإنسانية ويختار السبيل الذى يدعم كيان الدولة وحريتها . أما الذى لا يستطيع التخلى عن (التصور العام للأخلاق) فتصلح له الحياة (الفردية) وينبغى أن لا يتصدى للحكم » (١) .

القومية والدين :

ليست للدين مكانة مستقلة لدى النظرية القومية ، ويجوز أن يبقى الدين تابعاً للسياسة وخادماً لها — كما يقول القوميون — وحينما يقع التعارض بين الدين والقومية فإن الغلبة تكون للمصالح القومية بدون شك .

ويرى بعضهم أن من مآثر هذه النظرية أنها حررت (السياسة) من الدين، ولكننا لا نستطيع أن نجحد أنها شجعت المنهج المعارض للأخلاق والقانون بعد نموها واستفحال أمرها ، كما أنها أخرجت من الدستور السياسى العنصر (الدينىّ) الذى لا تنمو ولا تتطور الحياة الإنسانية إلا به .

انتشار القومية :

إن عامل الظروف والبيئة يؤثر فى انتشار أية نظرية ربما أكثر من مدى جاذبيتها ونفعيتها .

ويحتفظ التاريخ بكثير من الأمثلة التى تبين أن النظريات التافهة انتشرت وتطورت بطريقة مدهشة بسبب ملاءمة بعض الظروف لها . وإن النظريات العالية المهمة قد ماتت بسبب الظروف غير الملائمة . وحينما قام (ماكيافيلى) (٢) بتهذيب نظرية القومية وتنقيحها وجعلها صالحة للذهن الجديد

---

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة ج ١ / ص ٣٦ تاليف هيرولدهوف ونج .

(٢) سبق التعريف به ويوجد فى ثنايا البحث نفسه مزيد من التعريف به (المراجع) .

كانت الحياة الأوربية تقف على أبواب منعطف جديد يئست فيه من القيم القديمة ، ولم تكن القيم الجديدة قد ظهرت وتبلورت بعد .

ومن هنا كانت الحياة فى أوربا مجدبة تبحث عن منهج أو دستور تستطيع فى ضوء توجيهه وإرشاده تحديد الاتجاه الملائم كى تسرع السير بعيداً عن المنهج القديم .

ومن هنا عانقت الحياة فى أوربا منهج الحياة الجديدة فى ظل توجيهات نظرية (القومية) بينما بقى الدين آلة مستخدمة فى يد السياسة ، كمتعة نفسية أو مجرد زينة لمجالس السمر .

ومثل هذا الدين لم يحظ بأهمية عند الدكتور « مرسير » (خبير فلسفة العواطف) لدرجة أنه قال :

إن عاطفة التدين تنفع فى عملية التجمل والتزين فقط ، لكنها لاتحمل منفعة حقيقية للجماعة (١) » .

— وهو محق — فإن مؤهلات الدين النفعية تنعدم فى هذه المرحلة إلى حد كبير ، وتذهب عناصر الحياة تحت الأقدام كما تضيع قيم الإرادة والشجاعة والإقدام وغيرها .

وخلاصة القول أن جماعة سياسية مستقلة قد تكونت بعد انتشار نظرية القومية، وهذه الجماعة كانت تغلب مصالح الأمة والدولة على الآراء الدينية . ثم إن هذه الجماعة قد نجحت فى اجتذاب بعض الأشخاص (الدينيين) من فرقة الكاثوليك ، وفرقة البروتستانت حول عقيدة جديدة هى أن يكون (أساس الدولة) مبنيا على التسامح الدينى ، وأن تكون مصالح الدولة على حساب الدين .

---

(١) فلسفة الجاذبية ١١٣ ومرسير : فلسفة العواطف ١١٢ .

وبهذه الطريقة وجدت هذه النظرية سهولة فى عملية النمو والتطور ، وذلك بالتعاون بين رجال الدين والسياسة على أساس هذه النظرية الجديدة .

نظرية القومية والحياة :

إن العالم الحديث قد قبل النظرية القومية كمنهج ودستور .

وحينما يظهر شيء فى صورة المنهج ، فإنه يفرض نظرته الخاصة للحياة على المنحنى النفسى للأشخاص والجماعات ، ثم فى هذا الضوء تتحدد أصول الأخلاق والسلوكيات العامة .

ولا يمكن أن يكون هذا الشيء محبوباً ومحوراً للجهد والعمل ، ثم لاتبرز مطالبه ومقتضياته جلية ، ولا تتخذ لها فى الحياة مكانة خاصة .

وعلى ضوء هذه القاعدة كانت نظرية القومية قد أحدثت فى الحياة بعض المحاسن بالإضافة إلى المفاسد الكثيرة التى أحدثتها . ومن محاسنها الميل إلى نوع من الوحدة والتنظيم والتضحية والشجاعة — فى بعض الأحيان — وغيرها من الصفات التى لاتوجد نظرية بدونها ، ولايحصل ضمان للبقاء والاستقرار لأية أمة أو نظرية إلا بها .

وما لاشك فيه أن ضابط الأخلاق والعمل الذى أعد وفق هذه النظرية ، كان ضيقاً جداً ، ومحصوراً فى أفراد الأمة والجماعة إلى حد كبير ، ولكن لا يستطيع أحد أن ينكر أن القوة الاقتصادية والعسكرية والسياسية للأمة والجماعة إنما ترقى وتتطور بهذه الصفات ، ثم إن هذه الأمة وتلك الجماعة تميل إلى أن تستعبد العالم من ناحيتى الفكر والسياسة ، وعندما تنجح فى استعباد الناس ، فإنهم يستسلمون أمامها .

سطحية نظرية القومية :

— لاينكر عاقل أن للأخلاق والسلوكيات آثاراً وخواص مثل الأشياء الأخرى .

والسلوكيات إذا وجدت فلابد أن تظهر آثارها وخواصها ، سواء باسم (الدين) و (القومية) أو باسم آخر .

نعم قد يوجد فيما بينها خلافات بحكم الظروف أو البيئة .

ومعنى ذلك أن النمو الفكرى لو تم وفق المنهج السامى ، ولم تسيطر السطحية فى عملية تحديد اتجاه القوى الداخلية للنفس الإنسانية فلابد أن يكون سبيل الصدق الخلقى أوسع وأعلى بينما تسرى فى النفس روح النفع المطلقة والرحمة العامة .

أما إن كان المنهج سطحيا ، وتحددت فى ضوئه الاتجاهات والحدود النفسية فلابد أن تظهر آثاره السطحية فى قضية الصدق الخلقى ، بحيث يتجه هذا الصدق فيما بعد إلى اتجاه خاطىء بسبب ضغط البيئة والمكان ، ويفقد منافعه وآثاره الإيجابية .

ونظرية القومية بسطحيتها قد شجعت — ولا سيما فى مراحلها الأولى — تلك البيئة التى ينمو فيها الكذب والمكر والخداع والظلم والخيانة وغيرها من الأمراض ، كما دعمت الاتجاه المعادى للقيم ، التى تنمو وتنهض بها الإنسانية خضوعاً للمآرب والمصالح السياسية .

وفى مثل هذه الحالة كيف يمكن أن تبقى الحقائق على أحوالها الأصلية ؟

وحتى الضابط الخلقى والعملى الذى يسير وفق هذه النظرية يكون ضابطاً على المستوى الوطنى فقط ، أما الأمم الأخرى فإنها تتعرض بدون هوادة أو رحمة للمعاملة الوحشية القاسية من الدول القومية .

ومن هنا تعتبر العصبية والتنافس غير الشريف والصراع بين الأمم ، والعمل على إبادة الآخرين — بعض النتائج الحتمية لهذه النظرية ، ويسهل علينا مشاهدة ذلك فى هذا العصر .

حياة ماكيا فيلى :

ولكى تتضح هذه النظرية أكثر فإننا نذكر هنا موجزاً لحياة ماكيا فيلى ، ذلك لأن النظرية — أية نظرية — تتأثر بالأحوال الشخصية لمنشئها أيضا ، وربما تنزل بها سطحية ممثلها من العلو (إذا كان فى الواقع عاليا) إلى الحضيض .

لقد ولد (ماكيافيلى) فى مدينة فلورنس Florence فى إيطاليا سنة ١٤٦٩ ، وعاش إلى سنة ١٥٢٧ م واختار فى عنفوان شبابه الخدمة السياسية فى حكومة مدينته ، وقد أرسل سفيرا إلى عدد من الملوك الأمر الذى أكسبه بعض التجارب وأطلعه على كثير من الأحوال .

وحينما كان (ميكيا فيلى) موظفا فى السلك السياسى كانت سياسة إيطاليا قائمة على الخداع والدسيسة والتآمر والحسد والعناد والظلم وما إلى ذلك ، وقد أثرت هذه الأحوال فى حياته ، وهى التى أدت إلى تدميره الفكرى .

وفى سنة ١٥١٣ م نشبت ثورة فى إيطاليا ، وأطاح (ميديكى) (Medici) بالحكومة الحرة لفلورنسا ، فحينئذ أبعد (ميكيا فيلى) عن السلك السياسى فاضطر لأن يعيش حياة العزلة . وفى هذه الفترة ألف كتابه الشهير (الأمير) (The Prince) الذى اشتهر به .

ولم يكن (ماكيا فيلى) مفكراً كبيراً أو فيلسوفاً ، كما أنه لم ينل فى السياسة مكانة مرموقة ، بل كان شاعراً عبداً للذاته ، وكان يعيش بين الشعراء ، ولكن طموحه لم يكن لينتهى عند الحدود الجمالية ، بل كان يطلب القوة والعظمة أيضاً .

ويدلنا على تفكيره المنحط أنه ألف كتابه « الأمير » لإرضاء الحاكم الجديد لإيطاليا (ميديكى) فقط ، وأنه قد ركز فكره حول (القوة السياسية) للأسرة الواحدة ، ويبدو من تفحص أحوال حياته ودراسة أفكاره واتجاهاته أنه بسطحيته وضيق أفقه كان يأخذ فكرته من الأحداث السطحية ، ولم يكن

قد تعوّد الوصول إلى عمق الأشياء، فضلا عن الاطلاع على الحقائق ، وكذلك كان ينشغل أكثر مما ينبغي بالوسائل بحيث يغيب الهدف عن نظره .

ومن هنا لم ير ميكيا فيلي فى الدين أنه قوة روحية، بل تخلى عن جميع جميع التصورات التى تظهر بها القوى المبتكرة (١) .

ولم يكن صحيحا أن بعض المؤرخين والمؤلفين المتأخرين الذين جعلوا من ميكيا فيلي إنسانا عظيما — قد جعلوه كذلك لأنه كان رفيع المنزلة ، فعلا ، أو ان روح الصدق كانت سارية فى شخصيته ، كلا ، لم يكن الأمر كذلك وإنما كان سببه الحقيقى أن النظرية التى قدمها قد قويت وسيطرت بسبب ملاءمة الظروف لها .

والواقع أن القوة والسلطة تصطحبان معهما جميع أنواع الجذب والجمال . وتحولان الأنظار عن رؤية الضعف والأخطاء (٢) .

الدين بعد نظرية ميكيا فيلي :

وواقع الأمر أن انتشار النظرية الغائية لميكيافيلى فى العصر الحديث قد أحدث تياراً سياسيا فى الحياة ، فبدا كثير من الناس ينظرون إلى كل شئ بهذا المنظار ، وتحول الدين إلى آلة يمكن توجيهها ، وطقوس لا مضمون لها ولا روح فيها .

ومن جانب آخر كان (رجال الدين) (٣) — فى أوربا قد فقدوا بصائرهم التى توصل إلى الحقيقة فاختاروا النظر بهذا المنظار الميكيافيلى للحفاظ على كيانهم ومصالحهم .

---

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة (المجلد الأول) تاليف د / هيرولدهوف ونج .

(٢) الا لأصحاب المبادىء الثابتة الذين لا يندفعون كالأنعام أو اضل سبيلا (المراجع) .

(٣) من المعروف أن هذا المصطلح خاص برجال الكنيسة ، أما الاسلام فلا طبقة كاهنة فيه ، فكل مسلم هو داعية ، وهو رجل دين (المراجع) .

وهكذا ظهر – بتواطؤ من أهل السياسة وأهل الدين معاً – دين سياسى جديد سمى بـ (الدين الطبيعى) .

وكان أهل السياسة هم المسيطرون على عملية تدوين الدين الطبيعى ، وذلك مثل بودن (BODIN) (١) وهربرت (HERBERT) (٢) وغيرهما .

ولم تكن ملامح هذا الدين (السياسى) واضحة فى البداية ، ولذا لم يسبق إلى الظن أنه دين معارض لدين الوحى ، ولكن حينما بدأت مرحلة التميز وبدأ تنظيم المجتمعات وفق هذا الدين وضح أنه لم يبق شك فى أن هذا الدين (دين سياسى) فى الأصل ، قد ظهر ، وكأنه دين يوازى الدين السماوى.

ولذا فقد رأينا أن الموضوعات الدينية الأساسية المتصلة بقضايا الأخلاق والنفس قد خرجت من نطاق مفهوم الدين بعد انتشار الدين المذكور . وقد تم التعبير عن (الإنسانية) بأسلوب جديد ، وسنحت الفرصة للسياسة كى تحقق مطالبها وأهدافها بيسر وسهوله .

وفيما يلى نتكلم عن الدين الطبيعى الحديث بتفصيل ما حتى تسهل رؤية (بصمات) الدين فيه .

---

(١) بودان ، جان (١٥٣٠ – ١٥٩٦) فيلسوف اجتماعى ، وسياسى فرنسى . اشتغل بالقانون جر عليه تسامحه الدينى ، فى عصر شديد التعصب مليء بالحروب الدينية ، التهمة بأنه (مفكر حر) تقوم شهرته على كتابه (الكتب الستة لدولة خيرة) (١٥٧٦) الذى كان المحاولة الأولى لوضع فلسفة علمية حديثة للتاريخ . بين ضرورة السيادة المطلقة للملوك ، بحيث لا تخضع الا لقوانين الله والطبيعة (المراجع) .

(٢) هربرت ، يوهان فريدريخ : (١٧٧٦ – ١٨٤١) فيلسوف ومرب المانى . درس الحقوق ولكنه اهتم بالفلسفة والرياضة والأدب ، وعلى الأخص بالمسائل التربوية . اتصل ببستالوزى . ودرس طريقته فى التربية والتعليم . تولى التدريس فى جوتنجن ، ونال شهرة واسعة بما نشره من كتب فلسفية وتربوية نشرت مؤلفاته سنة ١٨٥٠ ترجم أكثرها الى الانجليزية ، والفرنسية . أبرزها كتاب (التربية العامة) و (محاضرات فى التربية) و (علم النفس) وغيرها . اتبع هربرت الاتجاه الواقعى فى فلسفة (كانت) . (المراجع) .

« الدين الطبيعي والحرية الفكرية »

حقيقة الدين الطبيعي :

الدين الطبيعي هو الدين الذى يبقى حرا من جميع العادات والتقاليد وينبنى على الطبيعة الإنسانية فقط (١) .

وفيما يلى تعاليم هذا الدين ، كما يشير (بودن) فى رسالة بعث بها إلى صديقه مؤيداً للتوحيد الكلى :

« لاتضلوا بآراء الدين المختلفة ، واثبتوا مع القلب على حقيقة أن الدين الحق ليس إلا روحاً طاهرة تتوجه إلى الله ، هذا هو دينى ، بل ينبغى أن يقال إن هذا هو دين المسيح » (٢) .

ثم يقول :

« لو لم يوجد إنسان أكمل وأعلى يمثل الأسوة الحسنة لتخبط الناس فى الظلم . وقد كان صلحاء بنى إسرائيل وأنبياء روما واليونان على هذا النمط » .

ويثنى (بودن) على أفلاطون من ناحية أنه أرشد إلى الله ، وإلى بقاء الروح . وأنه يرى أن ما بدأه (أفلاطون) قد أتمه المسيح ، ثم أرشد إلى ذلك — فيما بعد — الذين اصطفاهم الله تعالى .

ولاتبدو الحرب على الدين — عند بودن وغيره — واضحة فى هذه المرحلة ، إلا فى عملية عدم الاعتراف بمكانة الأنبياء والرسل الأصلية. عندما يقول داعية آخر إلى المذهب الطبيعي وهو تورالبا TORALBA :

« إن أحسن الأديان هو أقدمها ، وقد اكتسب أول إنسان علمه وتقواه من الله تعالى مباشرة . وحينما ترك الناس الدين الطبيعي الذى أودع فى طبائعهم

---

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة جـ ١ / ٦٧ هيرولد هوف ونج .

(٢) المرجع السابق . (نفس المكان) ويلاحظ أن هذه فكرة خبيثة خطيرة ، وهى فكرية تتضمن ابطال الوحى — وجعل الانبياء مجرد عظماء . (المراجع) .

مع العقل فقد ضلوا ، ويكفى الناس أن يحتكموا إلى القانون الطبيعى والدين الطبيعى ، ويمكن الاستغناء عن غيره من الأديان ، مثل اليهودية والنصرانية والإسلام .

ولا حاجة بالبشرية إلى التعلم والتربية فى الدين الطبيعى ، بل إن الإنسان إنما خلق بفطرته ملتزما بالدين الطبيعى لأنه مودع فى طبيعة الإنسان ، والعقل الذى منح لنا يستطيع التميز بين الخير والشر ، على أن الأهلية الدينية والخلقية إنما توجد على نحو أكثر فى الخاصة من العظماء .

وهذا الداعية (تورالبا) قد وصل بالحياة إلى الغاية التى لاتحتاج فيها إلى قيود دين الوحى ، ويكفى الاعتماد — عنده — على توجيهات الطبيعة المجهولة والعقل الحر . ولكن هؤلاء الطبيعيين لم يضمنوا لنا ألا تتحول هذه الطبيعة التى جعلوها ديناً إلى مجرد الخضوع للمزاج والهوى ، ثم يقوم هذا الهوى (والعقل) المنحرف معاً بمسئولية التوجيه بعفوية وجرأة .

هربرت والدين الطبيعى :

على أن الشخص الذى قام بتعريف هذا الدين الطبيعى على نحو أوسع ، كما قام — أيضاً — بعرضه فى صورة أكمل معتمداً الأدلة النفسية والمنطقيةهو (اللورد هربرت) (١) (LORD HERBERT)

فعلى يدى هربرت سوف يتضح على نحو أكثر — فى عملية نشر كبيرة — عملية رفض الدين الجديد (للوحى) بل إنه لم يكتف بنشر هذا الدين المضاد للوحى ، بل أنشأ نظرية علمية لتعليم هذا الدين الطبيعى ، وهى نظرية تتلخص فيما يلى :

« لو أمكن لنا إدراك الصدق ، فلابد لنا من وجود ملكات فى طبائعنا

---

(١) اللورد هربرت سبق التعريف به (المراجع) .

لهذا الهدف ، ووجودها يكون مؤسساً على الحقائق الكلية التى تظهر بمقارنة الأديان المختلفة » .

وباستثناء الحواس الظاهرة والحواس الباطنة التى على رأسها العقل الناقد توجد فينا (جبلة) توصلنا إلى الحقائق التى توجد مشتركة بين بنى الإنسان » .

ويستطرد (هربرت) فى نظريته فيثبت (الجبلة) بأسلوب مختلف وأدلة وبراهين متعددة ، إلى أن يصل إلى أن أساس المذهب الطبيعى هو (الجبلة) ويقول :

توجد فينا ملكات وعواطف لاتجد مجالا للتجربة وفق إرادتها ، وكذلك لاتسكن هذه العواطف بهذه التجربة المحدودة ، وعلى هذا لاتحصل لنا الطمأنينة الكاملة إلا بوجود كامل أزلى غير محدود . والملجأ الوحيد لهذه العواطف هو الله ، ولذا توجد فى جميع من سلمت فطرته هذه الملكة الدينية ، بطريقة مختلفة كما أنها لاتظهر فى العبادات والطقوس الخارجية فقط » .

ويؤسس (هربرت) دعائم الدين على خمسة عناصر ، تصلح لكل مكان وزمان ، فى رأيه :

أولا : فى رأيه أنه توجد (ذات إلهية) أعلى مستحقة للعبادة ، وأهم هذه العبادات هى التقوى والصلاح (القلبيان) .

ثانيا : يجب الحرص على التوبة من الكفر ومن الجرائم .

ثالثا : ثواب الأعمال وعقابها ثابتان بعد هذه الحياة .

رابعا : يجب الإيمان بكل أمر لاينفى هذه العقائد فى الأديان الأخرى .

خامساً : إذا وجد أشخاص لايرون هذه الأمور صحيحة ، فالسبب فى ذلك أن كثيراً من الأمور غير الصحيحة دخلت فى الأديان المعروفة ، فلهذا ينفرمنها بعض الناس ، فيرفضون منأجلها جميع الأديان ، حتى الدين الطبيعى .

ويرى (هربرت) أن الثلاثة الأولى من هذه العناصر الخمسة (أصل) بينما الاثنان الباقيان شارحان ومؤيدان لها .

ويقول (هربرت) عن هذه العناصر كلها :

« إنه يكفي الدين الطبيعي هذه الأركان الخمسة ، وعلينا أن نتمسك بها ، ونتخلى عن المسائل التي تقتضي البحث والمناقشة » .

وإنه بناء على الفطرة التي تتأسس عليها هذا الدين الطبيعي يتلقى الإنسان (وحياً باطنيا) مستمراً ، حتى يستطيع أن يتحرر من نصائح الموجهين الدينيين »(١) .

أخطاء الدين الطبيعي :

لا يخفى على أحد أن هذا الدين الطبيعي موجز جدا ، ويخلو من التفصيلات الكافية حول الأوامر والنواهي . والصعوبات التي تواجه وحي الفطرة أثناء تشكله في الشكل العملي ، والمؤثرات والعوامل التي تزاحم في ذلك ، والخطوات التي تتخذ للتغلب على الصعوبات والمؤثرات... كل ذلك لا يوجد في الدين الطبيعي ، فكيف يمكن أن يصان الإنسان في ميدان الحياة عن الهوى والشهوة بالقول بأن وحيا باطنيا يستمر بالفطرة ؟

وإلى متى يستمر هذا الوحي دون التغلب على صور الهوى والغريزة والشهوات الشديدة ؟ وهل يمكن الجحود بما نشاهده من أن عنف المقاومة ربما يخفي صوت الوحي ، بل ويسمى الانحراف بالفطرة ، مع أنها صور انحراف يخترعها الهوى الخفي .؟

وبما أن صور الهوى تختلف حسب اختلاف الأشخاص فإننا نرى تفاوتا في أصوات ما يسمى بالفطرة ، وإلا فالصوت الحقيقي للفطرة الأصلية يجب أن يكون متحداً ومنسجما فوق ما يتصوره أحد .

ولو سلمنا مع هربرت بأن (الجبلة) أو (الفطرة) هي مصدر الأركان الخمسة المذكورة فإننا بعد ذلك ملزمون بأن نوضح طريقة تطورها حتى تصل إلى نتيجة مفيدة .

---

(١) المكان السابق .

هربرت والسياسة :

لا شك أن (هربرت) كان رجلا ذا طبيعة حساسة وذهن متوقد ، وأنه لم يكن مستعداً لتحمل مغبة ضياع الإنسانية عن رضا وسكوت .

ولكنه كان تحت ضغط الظروف رجلا سياسيا ، فهو يتكلم عن الدين من وجهة نظر خارجية ، مع أن الدين من أهم المسائل النفسية والكونية ، بينما كانت وجهة النظر (الداخلية) للدين غائبة تماما عن هربرت .

وعلى هذا فإنه قدم باسم (الدين الطبيعى) بعض التصورات بإجمال شديد ولم يستطع أن يقدم أية إرشادات أو توجيهات فى نواحى الحياة الأخرى بل إنه دعا إلى اتباع (العقل والهوى) الجامحين بأسلوب خفى .

المؤثرات النفسية :

ولعلنا نتساءل كيف تطور هذا الدين الجديد فيما بعد ، ووصل بأتباعه إلى الإلحاد واللادينية ؟

إن الإجابة على هذا التساؤل تأتى مفصلة فى صفحات قادمة ، أما فى هذا المقام فإننا نقدم كلمة موجزة عن المؤثرات النفسية فى الحياة ، حتى نعطى القارئ فكرة عن الفطرة ومدى قوة مقاومتها ، وحتى يظهر الدين الطبيعى فى صورته الأصلية .

وفى البداية نقول : إنه توجد فى الحياة أربعة مؤثرات أساسية هى :

١ — الفطرة ٢ — الوراثة ٣ — البيئة ٤ — التربية

١ — تعريف الفطرة :

الفطرة اسم يطلق على القوة الكامنة فى الإنسان والتى تؤهله لقبول الحق ويمنح كل فرد هذه القوة فى مرحلة الخلق البدائية ، فهى كالبذور التى تصلح لأن تنمو وتصبح شجرة مزهرة ، فكذلك تصلح (الفطرة) لأن تنمو وتثمر أطيب النتائج إذا هى وجدت المناخ السليم .

وفى هذه المرحلة للفطرة يكون كل إنسان نقيا صالحا ، وتكون هذه الفطرة بمثابة التوز فى كل مرحلة من مراحل الحياة . نعم : حينما تغلب المؤثرات الأخرى فإنه يمكن أن تنطفىء أنوار الفطرة وتظهر فى الحياة آثار المؤثرات .

وقد ورد تعريف الفطرة فى معجم (LEXXICAN) على النحو الآتى : —

« الفطرة دستور طبيعى للطفل يتخلق عليه وهو فى بطن أمه من الناحية الروحية » ويرى (روسو) (١) أن الإنسان يولد صالح الفطرة . وبهذا قال (بستالوزى)(٢) فى دوره الأول والأخير .

وجدير بالذكر أن آراء المفكرين المسلمين عن الفطرة تشبه ماذكر ، ولكن يجب التنبه إلى أن مبحث القوة الملائكية والقوة البهيمية الذى يكثر وروده فى المؤلفات الإسلامية يتعلق بعوامل الخير والشر غير الفطرة .

ويؤيد هذه التفرقة بين القوة الملائكية ، والفطرة ، ذلك المبحث الذى ذكره الدكتور يانك IUING باسم(Persema) و (Anima) يفرق فيه بين القوة الملكية والبهيمية وبين الفطرة (٣) .

---

(١) (جان جاك) روسو (١٧١٢ — ١٧٧٨) : كاتب فرنسى — ولد فى جنيف — له تاليف فلسفية واجتماعية تادى فيها بطيبة الانسان وبالعودة الى الطبيعة منها : (العقد الاجتماعى) ، (اميل) .. (اعترافات) كان لمبادئه تاثير فى نشاة الثورة الفرنسية والرومنطيقية (المراجع) .

(٢) بستالوزى (يوهان هنرش) ولد فى ١٢ يناير سنة ١٧٤٦ فى زيورخ بسويسرا وتوفى فى ١٧ فبراير ١٨٢٧ فى بروج فى سويسرا — مصلح تعليمى من أوائل الذين ركزوا على اهمية ضرورة التعليم العام الافضل (دائرة المعارف البريطانية) (المراجع) .

(٣) فلسفة التربية عند الشاه ولى الله الدهلوى .

٢ ـ آثار الوراثة :

تدخل فى الإنسان بعض الخواص والأهليات بواسطة الوراثة ، وهى بعدخولها فى الطبائع تؤثر فى بناء السلوك . وكما أن صورة الإنسان الظاهرة تتأثر فى وقت الخلق والتكوين ــ ابتداء ــ فكذلك تتأثر صورته المعنوية أيضاً .

وبما أن الوالدين يكونان أقرب الناس إلى الطفل فى هذه المرحلة فإنهما يؤثران فى توجيه الطفل إلى الخير والشر أكثر من غيرهما . كما أنه بواسطة الوالدين يؤثر فى الطفل كل من كان قد أثر فى الوالدين . فالطفل حصاد مؤثرات كثيرة .

ونحن نقدم فى هذا الإطار بعض الآراء الاجتماعية الدالة على إثبات الوراثة :

يقول غوستاف لوبون : (١)

« الخلق أمر وراثى ، والوراثة لاتزول إلا بالوراثة » . وفى موضع آخر يقول : « إن الأمة لاتتبع سلفها فى الأمور المادية فقط ، بل إنها لتتأثر بعواطفهم وأحاسيسهم أيضاً » (٢) .

وقد جعل بعض خبراء علم النفس والاجتماع الوراثة أقوى مؤثر ، ولكن قانون الكسب والتدريب والمجاهدة لا يرى لها مثل هذه الأهمية . ويرى أن الذى لدى الخبراء بهذا الصدد هو التجارب التى تمت فى المراصد على الفئران والقرود وغيرها من الحيوانات .

ومن الواضح أن مثل هذه التجارب لاتنطبق على الإنسان انطباقا تاما ، وفى كل زمان ومكان .

---

(١) فيلسوف فرنسى شهير من أهم كتبه حضارة العرب وفلسفة التاريخ والسنن النفسية لتطور الأمم وغيرها .

(٢) السنن النفسية لتطور الأمم .

ثم إن الناظر إلى الإنسان يحتاج إلى نظرة خاصة وسمو ورفعة ، والعالم المعاصر لا يملك هذه النظرة ، ولا يتمتع بهذا السمو .

٣ — آثار البيئة :

يتأثر الإنسان بجميع أشياء البيئة سواء شعر بذلك أم لم يشعر ، ويدخل هذا التأثر فى فطرته وتفكيره بالتدريج فتظهر آثاره فى أعماله وأخلاقه .

والبيئة تنقسم قسمين : البيئة المادية ، والبيئة الاجتماعية .

وتتضمن (البيئة المادية) الأشياء الضرورية والكمالية مثل الأرض ، والبيت ، والحديقة ، والنهر ، والعين ، والفضاء ، والماء والهواء ، وما إلى ذلك .

ويدخل فى (البيئة الاجتماعية) الأشياء المكونة للحضارة والمدنية مثل المدرسة والتعليم والأخلاق والعقائد والآداب والفنون والصناعات والحرف وغير ذلك .

وفيما يلى بعض الآراء الواردة عن آثار البيئة بشقيها المادية والاجتماعية .
يقول العلامة ابن خلدون (١) فى الفصل الخامس من مقدمته الشهيرة :

يؤثر فى جسم الإنسان وأخلاقه كل من الإقليم ودرجة الحرارة والمناخ والمجاعة ورخص الأسعار وغيرها (٢) .

وقد جعل الدكتور (ليبان) البيئة المادية ذات تأثير أقل ، واعترف بتأثيرها فقط حينما تكون (الأمة) فى مرحلة نشأتها وبعثرة أخلاقها الوراثية القديمة . نعم لقد أولى (ليبان) عناية كافية للبيئة الاجتماعية وأعطاها حقها من التأثير (٣) .

---

(١) عبد الرحمن بن خلدون رائد علمى الاجتماع وتفسير التاريخ صاحب المقدمة وكتاب العبر فى أخبار العرب والعجم والبربر ، ت ٨٠٨ هـ .

(٢) مقدمة ابن خلدون الفصل الخامس .

(٣) السنن النفسية لتطور الأمم : غوستاف لوبون ١٣ ، ٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣١ .

وقد أعطى الفلاسفة القدامى والجدد عند (ليبان) أهمية بالغة للبيئة المادية وذلك مثل أرسطو وبقراط وابن سينا والجاحظ والمسعودى ومونتسكيو وغيرهم .

يقول بستالوزى : « كلما أمعنا النظر رأينا أن الإنسان يتكون بتأثير من بيئته (١) .

وكما تدل الوقائع المشاهدة يبدو أن أثر البيئة أقوى من أثر الوراثة حتى أن الوراثة لتظهر متأثرة بالبيئة إلى حد كبير » .

أما الخصائص والمواهب التى نراها وليدة الوراثة فإننا لو قمنا بتحليلها لدلنا ذلك على أن معظمها كان بتأثير البيئة .

٤ – آثار التربية : إن أحوال الأشخاص واتجاهاتهم تتأثر بالتربية وفق أحوال المربى واتجاهاته السلوكية والفكرية . أما إلى أى مدى يظهر أثر التربية بالنظر إلى فطرة الإنسان فإنه يمكن الإجابة على هذا السؤال بصرف النظر عن المصطلحات الفنية القديمة والجديدة بالطريقة الآتية :

يوجد فى الإنسان نوعان من الصفات : الأول الصفات التى تتعلق بالطبيعة والميول مثل السخط والشهوة والذكاء والفطانة والذاكرة والفراسة وغيرها .

وهذه الصفات تعتبر داخلة فى طبيعة الإنسان وأصله ، وكانت تسمى فى المصطلح القديم (بالجبلة) وتعرف فى المصطلح الجديد بالأساس النفسى .

ولا يمكن تغيير هذه الصفات بالتربية وحدها ، أى أنه يستحيل القضاء على السخط والشهوة بالتربية ، وكذا تحويل الغبى إلى ذكى ، نعم يمكن تحويل اتجاه الصفات الوراثية بتحويل استخدامها وأن ترقى حتى تبدو فى صورة أجمل .

---

(١) بستالوزى : فلسفة التربية والتعليم .

والنوع الثانى من الصفات هى الصفات التى لا تتعلق بالطبيعة ولكن تكرارها قد جعلها كالطبيعة الثانية للإنسان .

ومثل هذه الصفات اختيارية للإنسان ، فكما أن الإنسان يتعود الشىء بقصده وإرادته ، فكذلك يتركه أيضاً بقصده وإرادته (١) .

التربية والقوة الإرادية :

يحتاج الإنسان فى التربية أصلا إلى تقوية القوة الإرادية فيه ، ويرى علماء الأخلاق أن مستقبل الإنسان يتوقف على إرادته أكثر من توقفه على الوراثة والبيئة . وتتفاوت مراتب الإرادة فى الأشخاص مثل صفات الإنسان الأخرى ، فتكون إرادة البعض أقوى وإرادة البعض متوسطة ، وإرادة البعض أضعف ، وذلك كله وفق قانون الفطرة .

وبالتربية يمكن أن تجعل الإرادة أقوى مما هى عليه ، وخير زمان مناسب لهذه التربية هو زمن الطفولة .

وفى بعض البلاد المتقدمة يبدأ بعض الناس فى تربية الأطفال من سن الثالثة أو الرابعة حسب الاستطاعة ، وجهودهم فى ذلك قد تنجح إلى حد كبير (٢) .

وينبغى هنا فهم الفرق بين مصطلحى الرغبة والإرادة ، فإن الإرادة اسم لكيفية فعلية عاملة . والرغبة صفة منفعلة قابلة للتأثير (٣) .

ويشترط للإرادة عنصر العمل ، بل إن انتهاء الإرادة هو بداية العمل ؛ وعلى هذا جعل علماء الأخلاق مستقبل الإنسان متوقفا على إرادته إلى حد كبير .

---

(١) كشف الظنون ص ٢١ ، ٤٧ لحاجى خليفة ٢١ ـ ٤٧ .

(٢) النظام الالهى للتقدم والتخلف لمحمد الأمينى ٥٢ طبع الهند (قيد الترجمة) .

(٣) انظر مقالة (النفع) لجون استيوارث مل .

وتوضح التصريحات السابقة أن آثار التربية تظهر فى القسمين السابقين للصفات وهى الصفات الطبيعية ، والصفات الاختيارية ، ولكنها تتفاوت كثيراً حسب مراتب الصفات ودرجاتها .

دحض شبهة : ولا يعترض علينا هنا أنه قد يقع أن تعجز التربية الجسمية فى تغيير إحداث فى الجسم فكيف تحدث التربية العقلية والنفسية تغييراً فى الفكر والذهن ؟ ويجاب على ذلك أن التكوين الفكرى للإنسان يكون مرنا قابلا للتأثير والتأثر بسبب القوة الإرادية أكثر من التكوين الجسمى ، فلا يصح قياس الذهن على الجسم .

ثم إنه كذلك من الممكن أن لايسلم الزعم بأن الجسم لايقبل أثر التربية تماما ، لأننا نرى أن الجسم مع كونه صلبا غير مرن إلا أنه يتناسق ويزداد حسناً بالأعمال الرياضية ، وكذلك فإن استخدام جزء من الجسم بطريقة خاطئة تجعله قبيحاً . وإنه بعد مشاهدة هذا التفاوت فى الجسم بالرياضة فلابد لنا أن نسلم بحدوث تغير فى العقل والنفس بالرياضة العقلية والنفسية أيضاً ، وخاصة إذا عرفنا مرونة العقل والنفس بإزاء الجسم .

صيانة الفطرة :

وخلاصة القول أن الفطرة لا يمكن أن تبقى مصونة من الزيف والغش بعد وقوعها تحت تأثير الوراثة والتربية ، كما لايمكن أن يبقى صوتها جميلا مؤثراً بحيث يقوم بمسئولية التوجيه فى كل مرحلة بعد وقوعه تحت التأثيرات الجديدة .

ويجب للانتفاع الدائم بالفطرة أن ترتبط بها أوتار الحياة الإيجابية والسلبية كليهما ، وأن تنفذ الأوامر والنواهى الفطرية بنظام ، فبذلك يزدهر فيها نور البصيرة وتنتفع بها الحياة . كما أن الزرع إذا أخرج شطأه فإنه يحتاج إلى الوقاية من الحشرات ، بحيث لو امتصت الحشرات عرقه فلا يمكن أن ينمو الزرع وتثمر الشجرة .

وكذلك يجب توفير الغذاء الصالح والطقس الملائم للنبات ، وبدون ذلك فإنه لا يمكن أن يبقى قوياً قادراً على التكيف مع الحرارة والبرودة .

صيانة الطبيعة :

وينبغى أن نفهم جيداً أن الغذاء الصالح إذا لم يتوافر للزرع ، ولم تتم حمايته من الحشرات فإنه يخشى أن تدخل هذه الحشرات فى الأرض وتصير سماداً ثم تجد مناخاً صالحاً ، فتنبت زرعاً آخر وتورق وتثمر حسبما تريد .

وقد تنخدع الأبصار بهذه الصورة الجديدة للزرع فتحسب النشأة الثانية لهذا الزرع زرعا أصليا وطبيعياً ، ولكن الأنظار المبصرة للحقيقة تتعرف على الحشرات التى امتصت العرق الأصلى والتى تحولت إلى سماد ، وأدت إلى نشأة ثانية للزرع (١) .

والحاصل أن الدين الطبيعى المذكور آنفاً قد أسلم الكون – بمذهبه هذا – إلى الفطرة المجهولة ، ثم إنه لم يوفر الغذاء الصالح للحياة ، ولا أرشد إلى طريقة الحماية من الحشرات . ومن هنا تحقق ما يخشى ويخاف منه ، أى أن الحشرات (المؤثرات والعوامل المضادة) قد امتصت عرق الفطرة ووصلت بمعنى الحياة إلى قريب من الموت ، ثم إنها اندمجت فى الحياة وشكلتها فى أسلوب جديد فلم يبق للفطرة – فى ثوبها الجديد – تعبيرها الأصيل ولا للإنسانية المبنية عليها توجيهها ، وكذلك لم يعد ممكناً الاهتداء بأى أسلوب فى الحياة ، ولا حصل الاقتناع بأى توجيه .

دين الوحى ودين الطبيعة :

ومع هذه الأخطاء فقد تم انتشار الدين الطبيعى ، وقد استلزم ذلك التنفير من دين الوحى ، وتقرر فى الأوساط العامة أن عملية تحديد النظريات

---

(١) هذه فكرة طيبة جدا تحتاج إلى تعمق ، وحبذا ان يستوعبها هؤلاء الذين يتكلمون كثيرا فى التقليد الحضارى (المراجع) .

والأعمال المطلوبة للحياة الكريمة لاتحتاج إلى توثيق علوى من السماء (الدين) بل قيل إن البصيرة التى تحصل للإنسان بالعقل والفطرة هى التى تكفى لإرشاده .

• • •

وبجانب هذه الطائفة التى تقول بالدين الطبيعى كانت هناك طائفة أخرى لاترى حاجة حتى لتعاليم هذا الدين الطبيعى أيضاً ، وبالإضافة إلى ذلك كانت الطائفتان تخلطان مفاهيمها الدينية بالشئون السياسية بحيث يتعذر التفريق بينهما . ولعل مصطلح DEIST (الاعتقاد بإله لا وحى له) قد أطلق أولا على أصحاب الدين الطبيعى ، ثم اختص هذا اللقب بالذين ينكرون التدخل المعجز لله فى شئون الكون والحياة .

وفى بداية القرن الثامن عشر ظهر مصطلح (حرية التفكير) فى الأدب الإنجليزى ، وكان هذا المصطلح يعنى أن التفكير تحرر من جميع القيود .

وقد كثر عدد الملقبين بهذا اللقب فى هذا القرن وارتقى فيهم الشعور بالصدق والأهمية لم يروا بعده حاجة إلى اتباع دين الوحى السماوى (١)

ومثل هذه المصطلحات وإن لم تنفع فى مجال الفلسفة بشىء ذى بال فإنها تساعد على فهم أسلوب التفكير فى العصر الحديث ، ولذا لايستغنى عنها كتاب معاجم الحضارة والاجتماع .

الدين الطبيعى من البداية إلى النهاية :

وينبغى فى ختام هذا الحديث أن نذكر بإيجاز الجهود التى لعبت دوراً بارزاً فى نشأة الدين الطبيعى حتى نحصل على فكرة كاملة عنه تنتظم بدايته ونهايته .

---

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة تأليف د/ هيرولدونج .

إن أصحاب الأفلاطونية الحديثة قد عرضوا فى حركة الإصلاح الدينى آراء أفلاطون بأسلوب تظهر فيه ملامح الدين الطبيعى ، وهذا الدين الطبيعى يتصور أصحابه أن الإيمان بالله وبقاء الروح هى من حاجات (الفرد) الدينية . وقد أنشى فى مدينة (فلورنس) بإيطاليا مجمع أفلاطونى ذو تأثير قوى ، وكان ينشر آراء أفلاطون بقوة وحماس .

وكذلك حاولت الحركة (الإنسانية) فى إيطاليا اتخاذ آراء تماثل آراء أصحاب الدين الطبيعى . وقـد ظهرت هذه الحركة فى صورة اتجاه شامل للحياة ، وكانت مبنية على اكتشاف الإنسان . ومن دعوتها الخاصة دراسة الفطرة الإنسانية بتعمق وجعلها أساساً للعمل فى مراحل الحياة . ولاشك أن هذه الحركة مدينة للإسلام وتعاليمه إلى حد كبير . فإن الطريقة التى اختارها الإسلام فى كشف حقيقة الإنسان تتجلى روحها فى أساس هذه الحركة ، ولكن الإسلام لم يكتف بهذا الحد الذى وقفت عنده الحركة ، بل قدم صورة جلية لمكانة الإنسان ودوره ، وحدد أبعاد الفكر والعمل واتجاهها . بينما أهملت الإنسانية المذكورة هذه الجوانب كلها بصفة غريبة ومؤسفة .

ولم تكن هذه الحركة فى البداية واضحة تماما ، ولذا شاع الظن بأنها لاتقاوم دين الوحى ، بل تساير الفطرة الإنسانية — فيها — الرقى الإنسانى والدين جنبا إلى جنب ، فكانت الكنيسة — فى بداية الأمر — تمشى معها لتحقيق مصالحها الكنسية الخاصة ، ولكن لم تمض مدة قليلة حتى ظهرت مقاومة النزعة الإنسانية لدين الوحى بوضوح ، وقد كسرت هذه الخمرة الحديثة الأوانى القديمة (١) . ؟

---

(١) هذا مصطلح درج على استعماله العلامة (أرنولد توينبى) ويقصد به التعبير عن العلاقة الحضارية الضرورية بين القديم والجديد ويسميها (الخمر العتيقة فى الاناء الجديد) اما هنا فالخمر الجديدة قد كسرت الانـاء القـديم أى أن العـلاقة بين القـديم والجـديد كانت منحـرفة وفاسدة (المراجع) .

أسلوب سيطرة الدين الطبيعي على دين الوحي :

إن الدين الطبيعي كان قد اختار أسلوبا سياسيا للتغلب على دين الوحي وكان منهجه أنه دعا فى البداية إلى اختبار كل شئ بالمقياس العقلي ، كما دعا إلى رفض اعتبار الشيء الذى لايكون موافقاً لهذا المقياس وحياً .

وفى هذه المرحلة كان اليقين المسيطر هو أن ما كتب فى الكتب المقدسة يوافق العقل تماما ، ولذا فلم يبرز التناقض كثيرا ، وإن وقع نقص كبير فى كيفية الإيمان وإشباع الوجدان الإيمانى بسبب غلبة العقل على الدين ، بينما سارت الكنيسة تلهث وراء مقتضيات العصر الحديث بمساوئها ومحاسنها .

ولقد نشأ الجدل حول طبيعة المعجزات وحول الوحي نفسه ، فقيل : بما أن المعجزات تخل بالعمل الإلهى فإن الله لا يمكن أن يخل عمله بالمعجزات .

وإنه كذلك لايعقل أن يوحى الله إلى بعض الناس مباشرة ، بينما يحرم البعض الآخر من الوحي ، بينما هناك من يجهلون الوحي تماما .

ولقد شاع بعد ذلك الرأى الآتى :

إنه بما أن الدين الطبيعي يكفى فلا حاجة للوحي ، فضلا عن أن الوحي ليس ممكنا من الناحية النفسية والخلقية (١) .

الدين والعقل :

يقول أتباع الدين الطبيعي : إنه بواسطة أصحاب التفكير الحر مباشرة يكون العقل مقياساً فى الحكم على شئون الدين والحياة .

ونحن نحاول فيما يلى الرد عليهم وتوضيح ما إذا كان ممكناً للعقل أن يكون مقياساً فى الشئون المذكورة أولا . فنقول :

إنه لا يمكن أن نجحد دور العقل النافع فى ثبوت الحقائق والأشياء ، ولكن التجربة والمشاهدة تثبتان لنا أن تدخل العقل فى الدين والحياة محصور

---

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة جـ ٢ ص ٨ ، ١٢ .

فى مدى محدود ، ولايستطيع العقل خارج النطاق المحدد له أن يتدخل فى شئون الوحى ، وإلا كان تدخله مضراً فى أغلب الأحيان .

ونحن نرى أن العقل عاجز فى أكثر أوقات الحياة ، وفى هذه اللحظات العاجزة ينحط العقل إلى أودية العواطف والشهوات ، وينسى دوره فى التوجيه ، وإذا وجد توجيه فإنه لاينفع ولا يؤدى إلى نتيجة .

وفى مثل هذه الحالة كيف يمكن القطع بأن الشىء الذى يكون خارجاً عن مستوى عقل الإنسان وفهمه يكون خارجاً من حياته أيضاً ؟

وهكذا تقع أمور الدين الأساسية فيما وراء حدود العقل ، وإن النقطة التى ينتهى عندها عمل العقل (١) يبدأ منها عمل الدين ، أى أن الدين يبدأ من حيث ينتهى العقل .

وصحيح أن المباحث العقلية تتعلق، إلى حد كبير ،بالفطرة ، وبما فى الكون من الأحداث والمشاهدات والتجارب . ولكن أساس الدين الحقيقى إنما يتعلق عمله أصلا بما فوق الفطرة ، أو بتلك الأمور التى تخرج عن إدراك العقل والتجربة .

وفى هذه الحالة كيف يسوغ للعقل أن يقوم بتحليل دين الوحى وبمعارضة أموره الأساسية ؟ وكيف يمكن أن تقبل هذه المعارضة ؟

نماذج التغير :

إن العقل فى حقيقته سريع التأثر والتلون ، ولذا فإنه يتغير فى كل عصر بل إنه ليحصل التغير فى عقول أفراد من عصر واحد ، وفى عقل شخص واحد فى الأوقات والأحوال المختلفة .

فالقول بأن مثل هذا العقل يصلح مقياساً للأشياء هو قول يؤدى إلى إلحاق أضرار بالغة بالحياة الإنسانية وبالحقائق الدينية التى تفوق التصور والتقدير .

---

(١) المراد طاقة العقل (المراجع) .

ومن الجدير بالتنبيه أن الأمور التي يسمح للعقل بالتدخل فيها والتي هي مجال حركته وعمله ، فإنه كثيراً مالا يعترف فيها بالبديهيات والمشاهدات التي تؤمن بها أبسط العقول (العاقلة) . ؟!

وفيما يلي بعض النماذج التي نعرف منها الحكمة التي قصدت ، من وراء إبعاد أمور الدين الأساسية عن متناول العقل ..

النموذج الأول : إنكار الفيلسوف زينون للحركة : (١)

إن الحركة أمر بديهي جداً ، وهذه الكتابة التي تقرؤها (أيها القارئ الكريم الآن) ليست إلا أثرا من آثار حركة القلم في يدي ، ولكن الفيلسوف القديم (زينون الذي ولد قبل المسيح ، يقول (بعقله) إن الحركة خداع ووهم ، وإنها غير موجودة بل هي في رأيه مستحيلة الوجود (٢)

ويقول زينون أيضاً : « إنه لايمكن تصور الحركة ، فإن الخط الذي يوجد بين نقطة بداية الحركة ونقطة نهايتها مكون من النقط ، وبما أن النقطة لاتقبل الأمتداد فإن نقط هذا الخط لاتعد ولاتحصى ، فكل فاصلة ولو كانت صغيرة هي غير محدودة ، وبالتالي فلايمكن الوصول إلى نقطة النهاية » .

ثم يوضح زينون نظريته بالمثال التالي :

« إن الأرنب السريع (Achilles) مهما كان قريباً من السلحفاة لايستطيع أن يمسك السلحفاة ، فإنه كي يمسك بها يحتاج إلى قطع نصف المسافة مهما كانت قليلة ، ثم يستمر (التنصيف) هكذا إلى مالا نهاية :

والتسليم بكون الخط غير متناه مشكلة لايستطيع أحد التغلب عليها :

« إنك تظن أن الأرنب السريع . يمر في الفضاء ، ولكن يجب للوصول إلى الغاية المنشودة أن يقطع الأرنب سلسلة من نقاط الفضاء ، قاطعاً كل

---

(١) زينون : امبراطور بيزانطي (٤٧٤ ـ ٤٩١) لم ينل حكمه رضا الشعب حاول التوفيق بين الموتوفيزيقية والرأي الكاثوليكي ، فاصدر (٤٨٠) قرار التوحيد (هينوتيكون) الذي أدى الى خلاف مع روما دام ٣٥ سنة (المراجع) .

(٢) الدين والعقل زينون ص ٣١ .

نقطة بعد الأخرى ، ولكن وجوده فى لحة معينة على نقطة من الفضاء يرادف سكونه ، ولذا فالأرنب السريع ساكن فى كل لحة ، وحركته إنما هى خداع النظر فقط .

على أن الحركة لو وقعت فإنها تقع فى المكان أو الفضاء ، والفضاء لو كان شيئا حقيقيا فإنه يوجد فى فضاء آخر ، والفضاء الآخر فى فضاء آخر ، وهكذا إلى ما لا نهاية » .

وينتهى زينون — بهذا — إلى القول بأن الحركة غير ممكنة فى جميع النواحى ثم ينتهى أيضاً إلى القول بأن الحركة لغو من القول . ؟!

وتعرف نظرية زينون هذه فى الفلسفة باسم « استحالات زينون » !!

ومن الواضح أن هذا الاستدلال الذى توصل إليه (عقل زينون) فى غاية الغرابة والعجب . ومع ذلك فلم يستطع أحد أن يسكته ، ولا أن يمنع حركة قلمه ولسانه فى بيان هذا الأستدلال وشرحه ، واعتباره فلسفة من الفلسفات . وهذا هو النموذج الأول .

النموذج الثانى : فلسفة بيركلى :

لايشك أحد فى وجود الأشياء الخارجية ، فالجميع يشاهدون الإنسان والحيوان والشمس والقمر ، ولكن الفيلسوف بيركلى (BERKELEY) (١٦٨٥ — ١٧٥٣ م) يقول إن جميع الموجودات إنما هى تصورات ذهنية ، وليس هناك شيء موجود خارج الذهن — ولكى يثبت (بيركلى) هذه الدعوى فإنه يقول :

« إن الأشياء الخارجية التى هى أصل تصوراتنا إما مدركة أو غير مدركة والأولى مجرد تصورات ، وفى هذه الحالة يوجد فرق بين الأشياء الخارجية المفروضة وبين تصوراتها الذهنية فتثبت فى هذه الحالة دعوانا . أما إذا لم تكن هذه الأشياء الخارجية المفروضة مدركة فنسأل : هل يكون هناك معنى

لقولنا إن اللون مثل لشيء غير مرئي، وكذلك نقول عن إدراك اللين والصلابة إنه شيء ملموس ؟

ومن هنا فليس ثمة فرق بين الأشياء وتصوراتها .

إن المحسوس والمتصور ألفاظ مترادفة . والإدراك هو الذى يصنع الأشياء فى التصورات ولذا فلا تختلف أعمال الإدراك والخلق فيما بينها ، وتصبح التصورات هى الأشياء .

وخالق الطبيعة ينقش على حواسنا تصورات تسمى بالأشياء الحقيقية ، والتصورات التى تنشأ فى الخيال لاتكون منتظمة واضحة ، ولذا تسمى بالتصورات أو أشباه الأشياء . وتصورات الإحساس تكون أقوى وأنظم من من تصورات العقل ، ولكن هذا لايدل على أن وجودها موجود خارج الذهن ، ووجود المادة خداع ، والوقت ليس شيئا سوى تواتر التصورات ، ولا وجود للمكان خارج النفس ، فالنفوس فقط هى الحقيقة الموجودة ، وإنها تدرك التصورات بذاتها أو بعمل الروح القادرة التى تتوقف عليها » .

وقد أثبت (بيركلى) هذه النظرية بأدلة قوية جداً ، ومغزاها يظهر لمن يطالعها مفصلة فى تاريخ الفلسفة الذى كتبه (الفريرويبر) .

وهذه الفلسفة (البير كلية) يعترض عليها بأننا نشاهد فى الخارج كثيراً من الأشياء مثل الشمس والقمر والنجوم والأنهار والجبال ، فهل هى جميعاً مجرد خداع ؟ وهل نأكل ونلبس التصورات الخادعة ؟!!

.... .. وهكذا

.. .. والإجابة التى قدمها (بير كلى) على هذه الأسئلة جاءت بحيث تحير العقل وتدهشه

— ومع ذلك تبقى تساؤلات كثيرة كلها أسئلة وجيهة لم يستطع (بيركلى) الإجابة عليها ، ومنها أنه لو صح أنه ليس هناك وجود للأشياء غير المدركة فأين تذهب الروح فى حالة النوم العميق ؟ وأيضا فإذا لم يكن هناك وجود

للشيء خارج الذهن ، وللشيء موجود — فقط — برؤيته ، فمن يدرك ذلك بعد النوم حينما يكون الشيءُ موجوداً .

ونحن لاننكر أن (بيركلي) لايقول بوجود الأشياء خارج الذهن، ولكنه يقول بكثرة النفوس ، فكيف علم أن هناك نفوساً غير نفسه ؟ وما هي النفوس التي تدرك الشيء وتحفظها وتصونها حتى تبقى موجودة ؟!!

النموذج الثالث : فلسفة هيجل :

نقرأ في كتب المنطق والفلسفة أن اجتماع الشيء وضده محال ، وهذا الاجتماع للنقيضين لم يخطر ببال أحد ، وليس العقل مستعداً لقبول ذلك .

ولكن عقل الفيلسوف الشهير في العصر الحديث هيجل(١) (١٧٧٠ — ١٨٣١ م) قد أثبت بقوة أن التناقض ليس ممكناً فحسب ، بل إنه ليوجد بكثرة لدرجة أن وجود الكون نفسه قام على أساس هذا التناقض .

يقول هيجل :

ماذا يكون توجيه صور الكون المختلفة ؟ وهل الوجود المحض الذى لا شيء سواه يمكن أن يكون سببا لوجود شيء آخر ؟ وبأى مبدأ أو قوة يقع تغير الصورة ؟

ويجيب هيجل على ذلك بأن التناقض الموجود في الكون هو مبدؤه أو قوته . وفي تصورنا للوجود توجد (كلية) وعمومية أكثر ، لذا فإن هذا التصور أقل من أى شيء . فالأسود والأبيض والممتد والحسن نوع من الوجود لأن له صفة يعرف بها ، ولكن (الوجود المطلق) يرادف (العدم) ، ولذا فالوجود البسيط المحض أيضا يساوى العدم .

---

(١) (فردريس) (١٧٧٠ — ١٨٣١) ولد في شتوتغارت . فيلسوف ألماني . قال : ان الكائن والفكر شيء واحد هو الفكرة ، والفكرة تتطور على مراحل : الاثبات ثم النقض ثم الخلاصة . (له المنطق الكبير) و (مبادىء فلسفة الحق) (المراجع) .

إن الوجود – كما يرى هيجل – هو نفسه ، وكذلك هو ضد نفسه . وإنه لو كان نفسه فقط لكان غير متحرك وغير حاصل، ولو كان لا شيئا محضا لكان مساويا للصفر وبدون قوة أو نفع . ولكنه وجود وعدم فى سياق واحد ، ولذا فإنه يصير (شيئا) و (شيئاً مختلفاً) و (كل شىء) . ! !

وتناقض الوجود الداخلى يرتفع بتصور الحدوث أو الارتقاء . وفى الحدوث وجود وعدم معا . إنهما الوجود والعدم اللذان يوجد الحدوث بتضادهما ، ويوجدان فيه معاً ، ثم يحدث تضاد آخر ينتهى بتركيب آخر فنطق هيجل يقوم على مبدأ أن الوحدة تنشأ فى التناقض ، ثم ينشأ التناقض فى صورة جديدة حتى ينعدم ، ثم يوجد حتى تنعدم الوحدة فى النهاية تماما :

ووجهة نظر هيجل الأساسية ليس هنا موضع تفصيلها ، ولكننا نشير – فقط – إلى أسلوبه الذى يرد به على الردود التى تعارضه وتوضح مذهبه ، يقول :

«إن التناقض لا يوجد فى الفكر فحسب ، بل فى الأشياء أيضاً ، والوجود بنفسه متناقض . وحينما نفصل الفكر عن متعلقه وفق الأنظمة الوجودية والثنائية ونرى كلا منهما وجوداً مستقلا ، فتصير متناقضات الفكر منبعاً للتشكيك وفتور العزيمة ، ولكن حينما نعتقد أن الفطرة هى ارتقاء ذات الفكر ونعتقد أن الفكر هو شعور ذات الفطرة ، وكذلك حينما نفهم أن الكون هو تبدل صورة الفكر – حين نفعل ذلك – فإنه لن يبقى أمامنا شىء سوى الفكر فلا يكون التناقض الذى يواجه الفيلسوف معارضا لفهم الأشياء ، بل إنه يصير خبيراً بأن التناقض هو عين الأشياء ، وبأن تناقض الفكر مرآة لتناقض الأشياء »(١) .

ويتضح من هذه التفاصيل جيداً أن المقياس العقلى ضعيف ومتناقض جداً والشىء الذى يوافق هذا المقياس لا يكون حقيقة قوية ثابتة .

---

(١) تاريخ الفلسفة ٤٢٢ الفرير ويبر .

ومن هنا لايصلح المقياس العقلى لاختبار حقيقة الدين الثابتة ، ولن تثبت للدين حقيقة قوية إذا نحن اعتمدنا المقياس العقلى المحدود .

تلوّن العقل :

ولا يفهم من هذه التفاصيل أن تناقض العقل . وتذبذبه شيء مذموم ، بل إن ذلك محمود فى الأمور التى سلم فيها بتدخله ، وإنه لو لم يفعل ذلك فى هذا النطاق فإن هذا تقصير يحسب عليه .

ولاينكر أحد أن بهاء الكون وجمال أشيائه قائم بتنوع العقل وتلونه ، ولو ضم العقل رداءه الوسيع لمدة لحظة فإن تطور الكون سيتوقف ، ويصير العالم ، حظيرة للحيوان . إن العقل بتنوعه يخرج الكنوز المستورة للبحث والاكتشاف مستعينا بمشاهدة عمل الطبيعة وجمالها من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن العقل هو الذى يفتح جوانب الإبداع للنظر والاعتبار ، وبهذا يستمر مصنع الكون فى تطوره وارتقائه .

العقل والحياة :

وللعقل دور فى شئون الدين والحياة معاً ، فإنه قد عرف الصانع بمشاهدة المصنوعات ، وبحث عن العامل بالعمل ، واستدل بالبناء على البانى ، وبالصناعة على الصانع ، وكذلك بذل الجهد فى البحث عن ذات قادرة حكيمة فوق الفطرة وذلك بواسطة مشاهدة مظاهر القدرة ، بصرف النظر عن أن إلهه قد تجلى من وراء البحار فى صورة (علة العلل) بعد قطع مراحل العلة والمعلول (١) .

وبالإضافة إلى هذه الناحية الإيجابية هناك خدمات سلبية للعقل ، وهى جديرة بأن تكتب بماء الذهب ، فإنه بعد الاطلاع الذى سلم به العقل على

---

(١) يشير بذلك الى ما يعتقده الفلاسفة اليونانيون من وجود (علة العلل) البعيدة . أما المسلمون فيقولون (ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك) (المراجع) .

إبداعات القادر المطلق الحكيم آمن بأن الفطرة العمياء الصماء والمادة الميتة والألكترون الجامد لا يمكن أن تكون فاعلة ذات اختيار .

وهكذا أثبت لنا العقل أن قلة العقل وسطحية الإنسان تؤدى بالإنسان إلى الإلحاد ، وأن عمق العقل وسعته تقربه من الدين، كما يتضح من قول بيكن (١) .

قول بيكن :

يكشف بيكن (BACON) عن الحقيقة من وجهة نظره فيقول :

« إن التحقيق القليل يوصل الإنسان إلى (الدهرية) ولكن التحقيق العميق يرجع به إلى الإيمان بالله . والدهرية تذل الإنسان ، فإن فطرته الروحية تحتاج إلى العون والمساعدة حتى لا تهوى به فطرته الجسمية إلى حضيض المذلة . والإنسان بتعلقه بالذات الأعلى يعلو ويشرف ويكرم مثل الكلب الذى يتعلق بالإنسان. ولكن عبادة الوهم أفسح من الدهرية ، وسوء التصور للإيمان بالله أفضل من الاعتقاد فى آلهة حجرية أو حيوانية ذليلة لاتليق به .

إن الحالة الأولى سوء أعتقاد فقط ، بينما الثانية امتهان وتحقير للإله (٢) .

إن الخرافة بالنسبة إلى سوء الاعتقاد تورث سوء الخلق بسرعة ، والخرافة خطيرة للدولة أيضاً ، فإنه تنشأ بها قوى أعظم من قوى الدولة ، وفى مثل هذه الحال يضطر العقلاء لأن يسيروا وراء الحمق (٣) .

---

(١) بيكن (نيفن) . (شارل) . (١٨٧٣ ـ ١٩١٤) كاتب وشاعر فرنسى انشأ (الدفاتر الأسبوعية) من رواد النهضة الروحية فى القرن العشرين) (المراجع) .

(٢) يشير الكاتب الى معبودات الهند المختلفة مثل عبادة الأشجار والأقمار والحيتان والأنهار والقردة والفئران والأسماك وغيرها فهذا هبوط لمقام الألوهية (المراجع)

(٣) تاريخ الفلسفة الحديثة جـ ١ ص ٢٣٥ .

ويقول بيكون فى مناسبة أخرى قولا جميلا يوافق المقصد المذكور :

« لا ينبغى قط أن نخلط بين الفلسفة والدين . فإن الفلسفة بذلك ستمتزج بالوهم . ويمتزج الدين بالإلحاد ، ذلك لأن مصدرهما متباين ، فالفلسفة تبدأ بالإدراك الحسى ، والدين ينبنى على الإلهام والوحى ، والنفس الإنسانية فى العلوم تكون تحت تأثير الحواس ، وفى الإيمان تكون تحت تأثير ذات عالية هى الله . ولذا كان الإيمان أشرف من العلوم ، وكلما كان السر الإلهى أرفع من الظن واليقين كان الإيمان به إذعانا وإسلاما لله ، وكان أعلى وأرفع وأزكى .

وحينما نسلم بمبادىء الدين مرة واحدة نستنتج بها منطقيا ، كما نستنتج فى الفلسفة — بالأصول الأولية ، ولكن بينهما فرقاً كبيراً ، وهو أن الأصول فى الفلسفة تمتحن مثل القضايا الأخرى بالاستقراء ، ولكن الأصول الأولية فى الدين لا تمس لكونها موثقة من الله ، كما أن القوانين الأساسية للشطرنج لا تتعرض للبحث (١) .

خيبة الحياة :

يمكن من خلال المباحث السابقة الوصول إلى أن الدين الطبيعى ومذهب حرية التفكير لم يكونا مؤهلين لقيادة سفينة الحياة التى تلعب بها أمواج بحر الشهوات والعواطف إلى ساحل النجاة .

وفى المنطق الدقيق والخطير للعصر الحديث كانت هناك آمال معقودة على الفطرة . والحق أنه لو تم تطهير الفطرة وفق طريقة سليمة لكانت جديرة بالتوجيه .

ولكن ماذا يقال لليأس والعجز ؟ ! ! إن المفكرين الذين ألفوا عن نظام الفطرة كتباً لم يستطيعوا أن يبعدوا عن الفطرة غموضها وإبهامها ، فها هو

---

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة جـ ١ ص ٢٣٤ ويلاحظ رداءة التشبيه بين أصول الدين وأصول لعبة الشطرنج لكنه التفكير المادى المستهتر بالدين الشائع فى الغرب مهما حاول الكاتب الغربى أن يكون مهذبا فى تعامله مع الحقائق الكبرى (المراجع) .

(هالباخ) (HALBACH)واسبينوزا (SPINOZA) يقولان من ناحية : إن الفطرة قائمة بالذات وعلة لنفسها وجوهر أذلى . ومن ناحية أخرى يقولان إننا نعلم فقط عن العلل التى ترى عاملة فى التجربة،ولا نعلم عن العلل الأولية، وعلى هذا القول الأخير يقوم تصور الفطرة على التجربة ، فى حين أنه فى الصورة الأولى يجعلها عملا فكرياً فقط .

وباستثناء هذا الغموض هناك أسئلة كثيرة لم يتمكن دعاة الفطرة من الإجابة عنها ، وذلك مثل السؤال عن مقياس صدق الفطرة ؟ فإلى أين تذهب بنا التجربة ؟ وما هو التبرير (الفطرى) لبناء الفكر ؟

وهكذا جعل أصحاب المذهب العقلى توجيه العقل كافيا للقضاء على أزمات الحياة وتموجها ، ولكن لم تمض مدة كبيرة على اتجاههم هذا حتى طغت موجات الشهوات والعواطف بشدة انجرف إليها العقل نفسه ، ولم يستطع اكتشاف نفسه فضلا عن قدرته على التوجيه والإرشاد للآخرين .[1]

ومن الواضح أن أوتار الحياة التى تتعلق بالقلب لايجدى فيها إرشاد العقل وكذلك فإن شئون الحياة التى تتعلق بالعقل والقلب معاً لاينفع فيها العقل وحده .

ومعظم علماء ذلك العصر لم يقولوا بأن القلب وسيلة للعلم والإدرك ،ولم يجعلوا للقلب مكانة متميزة فى حل كل مشكلات الحياة ، ولكن فشلهم فى أمور الحياة وأحوالها يشهد بنفسه على أن هناك شيئا سوى العقل ، هذا الشيء

---

(١) اسبينوزا ، باروخ : (١٦٣٢ ـ ١٦٧٧) فليسوف هولندى ، سليل أسرة يهودية فرت مع من فر من اسبانيا والبرتغال بسبب محاكم التفتيش ، وكان مستقل الرأى مما ادى الى طرده من الجماعة اليهودية ، وحرمانه من حقوقه الدينية (١٦٥٦) فلبث حينا فى مسقط رأسه أمستردام ثم غادرها حتى استقر بلاهاى ، وعاش متواضعا على صناعة العدسات ورغم انطوائه ذاع صيته وزاره فلاسفة كثيرون ، وعرضت عليه الأستاذية بجامعة هيدلبرج فاعتذر ، ومات بالسل وأهم كتبه (الأخلاق) وفيه يبسط فلسفته : (المراجع) .

له أتصال قوى بمسائل الحياة ، ولا يمكن ملء فراغ الحياة دون العناية به . ألا وهو (القلب) :

وخلاصة القول : أنه خلال عصر سيادة الدين الطبيعى كان توجيه العقل ناقصاً ، وكانت الفطرة — فى المقابل — ناقصة ومشوهة أيضاً .

وفى ناحية أخرى كان بحر الشهوات والغرائز قد تلاطمت أمواجه ، وكانت سفينة الحياة تسير فيه يائسة من الوصول إلى الشاطىء ؟!

٣ — استعراض الحضارة الحديثة :

ونتيجة للأوضاع المذكورة كان لابد أن يظهر رد فعل ، فقد ارتفعت بعد زيادة الشعور بالضيق — أصوات تقول : إن الحضارة الحديثة قد تطورت بسرعة فى كل ناحية وفق طريقة غير منسقة ولا متوازنة ، ووقع هذا الاتجاه الحضارى الجديد فى منحدرات ومنزلقات خطيرة .

وبعد شيوع هذا الشعور جاء شعور بأهمية الإصلاح وضرورته فوجه (مجمع مديريات فرنسا (ويزان) الدعوة إلى أهل العلم والبصيرة بضرورة البحث والتحقيق حول ما إذا كان فى الإمكان قيام نهضة فى العلوم والفنون تعتمد على تزكية الأخلاق بحيث تكون بداية للنهضة المشوبة باللا أخلاق ، وقد وعد المجمع بجائزة للمقال الذى يختار حول الموضوع (١) .

نظرة إلى الإصلاحات :

يعلم العارفون بحياة الأمة والجماعة أن مثل هذه المقالات أو الكلمات تقوم بتهدئة النفوس وتسكينها ، ولكنها لا تكون علاجا للمشكلة ، وأنها تقلل أو تخفف من الشعور بالمرض ، بحيث لو تيسر العلاج الصحيح لخفّ المرض .

---

(١) ولكن هل يستطيع مقال أو جائزة انقاذ حضارة مندفعة لا تلوى على شىء ، ولا تأبه بشىء ؟!! (المراجع) *

ولكن الحياة المتأزمة فى العصر الحديث التى نتحدث عنها كانت قد فقدت القيادة القوية والبرامج المتوازنة . و بالتالى فقدت العناية بالعلاج الأصلى ، بينما ركزت جهودها للانتفاع بالأدوية والأغذية التى تستعمل لتهدئة القلب عند شدة الألم والاضطراب .

نعم : لقد ظهرت بعض الآثار وبعض الضوابط لاتجاهات الإصلاح كرد فعل ، وهذه أحدثت بعض التغير النافع فى الحياة الاجتماعية ، ولكن أساسها لم يكن قويا ، ولم يكن هناك برنامج منسق لإنماء الفضائل والقضاء على الرذائل ، وبالتالى فما نفعت كثيراً هذه الآثار والضوابط . وعاد الطوفان مرة أخرى ليجتاح المجتمع البشرى بقوة جديدة بعد فترة وجيزة .

الحاجة إلى القادة لا المفكرين :

ونقدم فيما يلى — كنموذج لحركة التغير والإنضباط — شخصين حاولا بنظرياتهما وبحوثهما إيجابية التوازن فى الحياة :

— أما أولهما فهو : (جان جاك روسو) (١٧١٢ — ١٧٧٨ م) (١)
(Jean Jacques Rousseau)

وثانيهما هو : إيمانويل كانت (Immanuel Kant) (٢)

وينبغى أن يعلم — أولا — أن الاثنين كانا مفكرين ولم يكونا من القادة . وكانا يفتقدان إلى حد كبير الخصائص التى يجب توافرها فى القادة ، نعم كانت توجد فيهما خصائص المفكرين (٣) .

ولايستطيع خبراء الحياة الاجتماعية الجحود بالحقيقة المؤكدة وهى أن سفينة الحياة إذا ترزطت فى الطوفان ، وعجز الربان بعد جهوده عن إنقاذها ،

---

(١) انظر ترجمته فى هامش سابق (المراجع) .

(٢) سبق التعريف به .

(٣) يراجع كتاب المؤلف (النظام الالهى للتقدم والتخلف) وتجرى ترجمته حاليا — لمعرفة الفرق بين القادة والمفكرين (المراجع) .

فالمطلوب من القادة الموجودين على ظهر السفينة أن يقودوا السفينة إلى ساحل النجاة وعلى هؤلاء القادة الجدد أن يغيروا عالم النفوس والقلوب ويملئوه بروح الإيمان والعقيدة ، ويقوموا بتربية القوة الفكرية والخلقية حتى يستطيعوا قيادة عجلة الحياة .

هذا هو دور القادة .. .. أما المفكرون فهم يحدثون الأفكار والأخيلة ، ويكتفون بإيصالها إلى الآخرين ، ولذا فإنهم لاينجحون كثيراً فى قيادة منعطفات الحياة الاجتماعية فى عبور العقبات الحضارية الخطيرة التى تواجه الأمم . ثم إنهم يفقدون سعة النفس وعلو الهمة والنضج العملى وغيرها من الوسائل التى تحتاج إليها القيادة الصحيحة .

شخصية روسو :

لقد كان (روسو) أول شخص عظيم أبرز فى هذا العصر المتأزم الأسس العميقة للحضارة ، وفصل قضاياها بوضوح . ومن أعظم أعماله أنه لم يرض بالجرى وراء تيار الحياة ، بل عرف الاتجاه الصحيح للتاريخ ، وحاول أن يسبح ضد تيار الحياة الجارف .

ولكى نعرف مكانته فإنه ينبغى استعراض أحوال ذلك العصر بإيجاز :

— لقد كان الدين والأخلاق فى وضع متدهور تصوره لنا الفقرة التالية التى وردت على لسان (مورا ستيفز) ... يقول :

« التدهور الخلقى فى القرن الثامن عشر الميلادى قد قضى على النشاط الإنسانى الخيرى لأفراد جميع الطبقات فى البلاد ، ولقد كان سوء الاعتقاد سائداً عن الدين النصرانى فى البلاد البروتستانية والكاثوليكية ، ومعظم قساوسة المدن الكاثوليكية كانوا متهمين بانحلالهم » .

ولقد كان القسس أنفسهم كارهين — كما يبدو — للدين الذى يدعون إليه ، بينما كان بروتستانت ألمانيا وقساوستهم أحراراً فى إلحادهم .

وكانت النصرانية فى البلاد البروتستانية والكاثوليكية قد تحولت إلى مجرد أخلاق شخصية جذابة . وبهذه الأخلاق الخرافية والتى لاتقوم على أصول دينية ظهرت مؤسسات عديدة سرية مثل حلقات المجاذيب (زوزيتى) و (ليومينيتى) كما أنهم وضعوا مكان الدين الصحيح الحياة المادية الآلية والعادات والمراسيم الخالية من الروح (١) .

لقد كانت هذه هى الحالة الدينية والاجتماعية فى أوربا — من جانب — ومن ناحية أخرى كان البريق الجديد للعلوم والفنون يخطف أبصار العالم ، وقد سحرت الأعمال الأدبية التى راجت قيادات حركة الإصلاح الدينى ، كما سحرت أيضاً هذه الأعمال الأدبية (فضلا عن الفنون الجميلة والاكتشافات العلمية) جميع الناس تقريباً .

وكانت هناك موسوعة يجرى إعدادها (وكان روسو من أعضائها) والهدف منها أن يطلع الناس (من متوسطى المعرفة) على الحركات العلمية والأدبية الحديثة .

وهذه الموسوعة أعدت فى فرنسا فى القرن الثامن عشر الميلادى . وكانت تتضمن نقداً للآراء العلمية والدينية القديمة معتمدة فى نقدها على فلسفة لوك(٢) وعلى معطيات العلوم الحديثة الأخرى .

وقد كتب روسو مقالات عديدة عن الموسيقى، ومقالا عن الاقتصاد.(٣)

نقد روسو لآثار العلوم والفنون القديمة :

ومن الواضح أن الإساءة لمكانة العلوم والفنون السائدة فى مثل هذه الأحوال فضلا عن التشكيك فى فوائدها لم يكن من الأعمال التى يقدم عليها قليل الهمة .

---

(١) اخلاق اوربا موراستينفس ص ١١ .

(٢) جون لوك ولد فى ٢٩ اغسطس سنة ١٦٣٢ فى (رنجته بسمرست) بانجلترا بانجلترا وتوفى فى ٢٨ اكتوبر سنة ١٧٠٤ وفى أوتس وهو فيلسوف سياسى وتربوى (المراجع) .

(٣) تراجع مقدمة كتاب روسو (العقد الاجتماعى) .

ومن ناحية أخرى فإن الموضوع الذى وزعته مؤسسة (ويزون) فى فرنسا على أهل العلم والثقافة حتى يكتبوا فيه - ورصدت له جائزة - كان يتعلق بنقد آثار العلوم والفنون ونتائجها .

ولقد كان روسو هو الرجل الجرىء الذى استعرض فلسفة التنوير والأحوال الموجودة استعراضاً نقدياً ، وحصل على الجائزة . كما نال كثيراً من الشهرة بتقديمه هذا الموضوع الذى طرح للمسابقة ، والذى قدر له أن يحدث تأثيراً كبيراً فى عصره .

وفى عالم روسو الخيالى والفكرى تبدو مناقضة الفطرة الإنسانية للحضارة والمدنية فى كل مكان .

وحالة الفطرة عنده حالة طبيعية خاصة تفوق الحضارة والمدنية بسبب أن التوازن يتحقق فيها بين ضرورات الإنسان وبين أسلوب إشباعها فى الحالة الفطرية .

ولقد عنى روسو بالفطرة والبساطة والمساواة والخير والحرية .

كما نقد من لوازم الحضارة الترف وسوء الخلق والعبودية وضعف الإيمان واليقين .

ونعرض فيما يلى بعض المقتطفات التى يمكن بها الاطلاع على آراء روسو الأصلية .

مقتطفات من بحث روسو :

« إن حاجات الروح والجسم مختلفة فيما بينها، وتقوم على الحاجات الجسمية حياة المجتمع ، بينما الحاجات الروحية فى ظل الدين الطبيعى لاتزيد عن كونها جزءاً من الزينة أو الحلية. وفى هذا الاجتماع الجديد إبراز لمحاسن الأخلاق المصطنعة (البروتوكلات) مع فقدان لمكارم الأخلاق الحقيقية (١) .

---

(١) روسو (العقد الاجتماعى ١٥) .

وقبل أن يصوغ هذا الحديث أحوالنا فى قوالبه،ويعلم عواطفنا الكلام المصطنع المنمق . كانت أخلاقنا فطرية صادقة حتى وإن كانت خشنة (١) ».

ثم يقول : إن كثيراً من الرذائل توضع فى مكان (محاسن الأخلاق) ويفرض على الناس اختيارها أو التظاهر بها على الأقل (٢) .

وكلما تقدم العلم والفن فسدت الأخلاق ، وانحطت أساليب التعامل ، وكلما ظهر ضوء العلم والأدب فى أفق الإنسانية غابت الحسنات ، وهذه اللعبة مستمرة فى كل زمان ومكان بدون استثناء !!

وإن وجود العلوم أصبح عبثا بالنسبة لأهدافها ، ولكن نتائجها هى أخطر بكثير (٤) .

ـ هذا ، وإن تقدم العلوم والفنون بينما يقضى على الصفات العسكرية من ناحية ، فإنه من ناحية أخرى يزرع الأشواك فى طريق محاسن الأخلاق، وحيثما يقع بصرنا فإننا نجد دوراً كبيراً للعلوم يتفوق فيها الطلاب فى كل فن ، ولكن أحداً لا يدلهم على مسئولياتهم الحقيقية .

إنهم يجهلون حتى لغتهم الأم ولكن ألسنتهم تنطلق انطلاقاً سريعاً باللغات الميتة التى لايتكلم بها أحد فى أصقاع العالم ، وإنهم يقرضون من الأشعار ما لايفهمون معانيه ولا يفهمه غيرهم(٥) ، وإنهم لايقدرون على التمييز بين الحق و الباطل ، ولكنهم يعرفون فن تأليف الأغاليط التى تدهش الآخرين فلا يميزون بين الحق و الباطل (٦) .

---

(١) المرجع السابق ١٦ .
(٢) السابق ١٨ .
(٣) المرجع السابق ١٩ .
(٤) المرجع السابق ٣٢ .
(٥) قليل جدا .. بل لا يكاد يوجد فى الحقيقة من يفهم شعر هؤلاء ، ومن على شاكلتهم من شعراء الشعر الحديث (الذى ليس من الشعر فى شيء) وتظاهر البعض بفهمه ممن يؤيدونه هو خداع لأنفسهم وللناس ... واصرار على التضليل (المراجع) .
(٦) العقد الاجتماعى ٤١ .

ولا يسأل عن الإنسان اليوم فيما إذا كان أمينا أولا ؟ ولكن يسأل فقط عن مهارته الاجتماعية ، سواء كانت مهارته حقيقية أم ملفقة .

وخلاصة القول أن تقدم العلوم والفنون لم يزد فى سعادتنا الحقيقية شيئا ، بل أفسد أخلاقنا وذوقنا السليم (١) .

ويقول عن الخير فى موضع آخر :

إن الخير قوة روحية ، وكل تزييف أو تكلف هو بعيد عن حقيقة الخير والشخص الأمين هو مثل المصارع الذى يجب أن يتعرى وقت المصارعة ، وينظر إلى الملابس الثمينة التى تستر العيوب الجسمية بنظرة الاحتقار ، ويتمنى أن يخلعها لأنها تمنع تحركاته الفنية للتغلب على الخصم على حلبة المصارعة (٢)

ويقول فى موضع آخر مخاطبا الخير نفسه :

« أيها الخير ! أنت الذى تعتبر العلم الأعلى للبسطاء فهل يحتاج فى الوقوف عليك إلى رياضة ومشقة ؟ ألم تنقش مبادئك البسيطة فى كل قلب ؟ ما الذى يجب أن يتبع كى نعلم قوانينك سوى أن نحاسب أنفسنا ونصغى إلى صوت ضميرنا مسكتين غرائزنا ..

هذه هى الفلسفة الصادقة التى تعلمنا القناعة (٣) .

انتقادات روسو :

كان روسو قد ألف بحثاً آخر للمسابقة ، وكان عنوانه (مصدر المساواة بين الناس) وفى هذا البحث ذم روسو كثيراً من جوانب الحضارة والمدنية ، وأثبت أن حالة الإنسان قد فسدت بسبب خروجه على قوانين الفطرة واختياره الحياة الاجتماعية المدنية . (ولكنه لم يحصل على الجائزة فى هذه المسابقة) ! !

---

(١) المرجع السابق ٤٨ .

(٢) المرجع السابق ١٦ .

(٣) روسو : العقد الاجتماعى : ٥١ .

ولاشك أن انتقادات روسو تتصف بالحيوية والفكر العميق ، ولكنها تعرض للنواحى السلبية فقط ، وليس للنواحى الإيجابية فيها نصيب ملائم لحقيقتها .

والذين طالعوا آراء روسو وأفكاره بنظرة عميقة لايستطيعون أن يجحدوا أنها متطرفة فى إنتقاص الحضارة الحديثة ومتصفة بالتفريط فى مقابلة الإفراط لدى عشاق الحضارة الحديثة (١) .

آراء فولتير :

وحينما أرسل روسو إلى فولتير (YOLTAIRE) ١٦٩٤ — ١٧٧٨ م) مقاله عن (مصدر عدم المساواة) رد عليه فولتير بقوله :

« وصلنى كتابكم الجديد الذى ألفتموه ضد النوع الإنسانى ، وأنا أشكركم عليه . ولم يتخذ أحد موقفاً ظريفاً هكذا فى محاولة تحويلنا إلى صورة البهائم ، وبعد قراءة كتابكم تمنيت أن أتمكن من المشى بالقوائم الأربع ، ولكن هذه العادة قد تركتها قبل نحو ستين سنة (٢) ، ولذا فإنى لا أستطيع اختيارها الآن من سوء حظى (٣) » .

والحق أن فولتير كان معجبا بالمذهب العقلانى على العكس من روسو . ويظهر الصراع بين العقل والفطرة فى نظرياتهما فى كل موضع ، وبالتالى فإن فولتير يرى أن الاتجاه إلى ذم المدنية يعود إلى مشاعر الطفولة ، ولذا يكتب إلى روسو قائلا :

« إن الإنسان بفطرته حيوان مفترس ، ومعنى المجتمع المتحضر تقييد هذا الحيوان والتقليل من وحشيته وتطوير عقله وزيادة سعادته بالنظام الاجتماعى (٤)

---

(١) ول ديورانت : قصة الفلسفة .

(٢) اى منذ كان طفـلا يحبو .

(٣) ديورانت قصة الفلسفة ص ٣١٥ .

(٤) السابق ٣١٦ .

وفى حين أن روسو يبدأ كتابه (العقد الاجتماعى) بالكلمات الآتية :

« لقد خلق الإنسان حراً . ولكنه مقيد حيثما نراه » .

التطرف عند فولتير :

إن انتقادات فولتير المذكورة ليست متطرفة فحسب . بل إنها تعنى الانتقاص من خدمات الآخرين بادعاء العلم والعقل .

وروسو لايقول قط إنه يجب أن يعود الإنسان إلى عصر الوحشية بل إنه فى بعض رسائله ينظر إلى التعليم والتمدن بعين التقدير والإعجاب .

نعم إن روسو لم يستطع أن يحدد الخطوط الواضحة لإصلاح نظم التعليم والحضارة المعاصرتين ؛ وكل ما قاله إنما هو مجرد تصميم إجمالى يبعد كثيراً عن عالم العمل الواقعى .

تعليق على أفكار روسو الدينية :

تتناول أفكار (روسو) وآراؤه — فى مجملها — ثلاث موضوعات هى : التعليم ، والاجتماع ، والدين . والموضوعان الأول والثانى خارجان عن موضوع بحثى ، أما الموضوع الثالث وهو الدين فهذه بعض التفاصيل عنه :

إنه لايوجد شيء جديد فى آراء روسو الدينية . إنه كان يقول بالدين الطبيعى المذكور ، ولكنه بتفكيره العميق كان يشرحه ويوضحه بأسلوب قوى ، وهاهو ذا يقول فى رسالة له :

« إن منبع الإيمان باطنى ، وإنه لا يؤمن بالله لأن كل شيء فى الدنيا جميل ، بل إنه يرى فى كل شيء نوعاً من الجمال لأنه يؤمن بالله » .

ويقول مؤكداً للدين الطبيعى :

« لاينبغى إلقاء الآراء الدينية فى قلب الطفل من الخارج . بل ينبغى أن يخلق قلبه دينه من الداخل حسب حاجاته » .

ويرى روسو أن الناس لو قبلوا هداية قلوبهم لما كان هناك دين سوى الدين الطبيعى (١) .

و بما أن الصلة فى أفكاره مباشرة بالإحساس و العاطفة و الضمير والوجدان فلذا لم تظهر مقاومة واضحة لأفكار روسو من رجال الدين .

وبالإضافة إلى ذلك فإن روسو قد عمد إلى المغالطة فى رسالته إلى أسقف باريس الأعظم ، التى قال فيها : (سيدى : أنا نصرانى ، أتبع تعاليم الإنجيل بالقلب ، وإنى فى نصرانيتى لست تلميذا للقساوسة بل للمسيح) . وهى مغالطة موّه بها روسو على الكنيسة وخدرها ، فلم تشتط فى مقاومته (٢) .

فشل روسو :

ولكن روسو لم ينجح فى تجلية الغموض فى الدين الطبيعى ولا فى حل لغز النصرانية .

ولاشك أن الفطرة تستطيع أن ترشد ، ولكن حتى يتحقق ذلك ، فكيف السبيل لصيانة الفطرة من الوراثة والمؤثرات الداخلية التى تشوه عمل الفطرة ؟!!

ويصعب مع الحياة فى المجتمع الإنسانى أن لايقع التأثر بالبيئة المحيطة بالإنسان ، حتى إن القلب لايستطيع أن يحفظ نفسه .

وفى مثل هذه الحالة إذا لم يكن هناك برنامج واضح يصقل القلب فإنه لايرجى أن تكون هداية القلب مستقرة بدون الغلّ والغش ولا أن تقوم هذه الهداية على أسس الفطرة .

وفضلا عن ذلك فكيف تكون الغريزة الإنسانية مطيعة للفطرة الإنسانية دون وجود الأعمال التى تنظم الحياة ؟ وحينما تدمر مخالفات الفطرة حاسة الروح والخلق فما هى الوسائل التى تقوم بعملية الصقل والتطوير والتهذيب ؟

---

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة ٥٨٤/١ .
(٢) تاريخ الفلسفة الحديثة ٥٨١/١ .

ولعل روسو لم يعلم أن التصوف الذى يجعل الاتجاه إلى الله مجرد معرفة ذهنية دون التمرن على العقيدة الخالصة والأعمال الصالحة لا تكون فى دنيا الحقيقة سوى سفسطة، كما أن الهدوء الذى يحصل بمجرد إسكات الغرائز ليس له مكان فى المعرفة الوجدانية، بل إنه مجرد حالة نشأت بسكون طوفان الغرائز والرغبات بصورة مؤقتة.

عوامل الحفاظ على الفطرة :

لقد سبق أن بينا أن الفطرة مثل البذرة ولقد أودع الله فيها قوة النمو والإثمار. ومن المعروف أن البذرة تحتاج لكى تكون شجرة ذات ثمار وأوراق إلى ثلاثة أشياء : الأول نقاء الأرض، والثانى السماد، والثالث الرى. وكذلك يجب تنظيفها وصيانتها من الآفات الأرضية والسماوية وتسوية الأرض وإجراء جداول الماء وما إلى ذلك.

وفى ضوء هذه القاعدة فإنه – لكى نحافظ على الفطرة حتى تؤتى ثمارها - تجب تنقية الأرض من الشرك والنفاق (الأعشاب وغيرها) ثم بعد ذلك يلقى سماد الإيمان واليقين، ثم يسقى الزرع بالعبادات. وبعد ذلك تأتى درجة (الحدود) الآداب والأوامر والنواهى والمنكرات والمشتبهات. وهى تؤثر خطوة بعد خطوة، وربما لا تسير عجلة الحياة بدون الحفاظ على هذه الأمور.

وبدون أن تتم صيانة الفطرة ونظام نموها وإثمارها على هذه الطريقة – فإن أوراقها وثمارها لن تبقى ثابتة نافعة، ولن تعطى أساسا محكما لبناء المجتمع.

علم النبوة والفطرة :

وفى منهج الدين الطبيعى لايستطيع العقل وحده أن يفعل شيئا. فإن مكانته فى شئون الحياة الأساسية قد وضحت من قبل، والفطرة نفسها لاتستطيع أن تتحمل مسئولية (التنظيم) فى ظل وجود المؤثرات الأخرى الإنسان فى صورته الأصلية وإرشاد قواه الخلاقة إلى الحقائق الفطرية

بتحديد الطرق الصحيحة واستخدام المواهب والنظم وبيان صور الفكر والعمل الدقيقة حتى يتمكن الإنسان من تحديدمنزلته واتجاه أعماله .ويؤدى مسئولياته وفق طريقة مستقيمة .

ويشهد تاريخ المفكرين أن الذين حاولوا حل مشكلات الحياة البشرية بالانحراف عن تعاليم النبوة لم يستطيعوا تقديم حل لمشكلة تغليب العقل على العواطف ، بل إنهم صاروا فى بعض الأحايين عبيداً للعقل أو صاروا فى أحايين أخرى عبيداً للأحاسيس والعواطف وعندما يخالفون العقل .

وإن حياة روسو نفسه الأخلاقية قد راحت ضحية الهوى والنزوات ، ولقد ترك حياته العملية مشوبة بالخزيات الفاضحة والأعمال القبيحة السوداء .

شخصية كانت :

أماالشخصية الثانية وهى شخصية(إيمينويل كانت) (Immanuel Kant) (١٧٢٤ — ١٨٠٤ م) فقد كانت نظرياته وأفكاره قد حاولت أن توجه الحياة والفلسفة وجهة جديدة .

ولعله لايوجدفى العصرالحديث فيلسوف آخر سيطرت فلسفتههذهالمدة الطويلة مثلما سيطرت فلسفته(كانت)، وحينما ظهر (كانت) كان مؤيدو العقل يعتقدون أن الفلسفة والمنطق يستطيعان أن يحلا جميع المشاكل ، وأن يقدما نموذج الأهلية البالغة لكمال الإنسان . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى كانت الاتجاهات العقلانية تعرض نفسها فى صورة الإلحاد المطلق ، والمادية المغرقة ! !

والواضح أنه لم يكن هناك مقومات توحى ببقاء البقية من الدين فى ظل الوضع الآنف الذكر ، فقد كانت العقائد القديمة للدين فى طريقها للاندراس وكانت الكنيسة فى ضوء التفصيلات التى ذكرناها عنها ، والبالغة القبح تسير بسرعة إلى الانحطاط .وقد نشط — أمام الوضعية المتردية للكنيسة هذه—

دعاة الدين الطبيعى مثل هولباخ (Holbach) وغيره فى نشر هذا الدين ، فأوصلوا الإلحاد حتى إلى بيوت الرجال المتدينين .

ومع هذا الإلحاد فإنه لم يتمكن (العقل) من تهدئة النفس والقلب ، ولا ظهر بديل لليقين والأمل الدينيين لسد فراغ الحياة الناشىء كأثر من آثار ترك الدين .

— ومع هذا فلم تكن مئات الألوف من كنائس أوربا قد استسلمت أمام قرار العقل المتحرر مع أنها لم تكن تستطيع المقاومة فى هذه الظروف .

الدين فى محكمة العقل :

لقد كان عصر سيادة الدين الكنسى قد ولى ، فكما أن العقل كان فيما سبق عاجزاً أمام سيطرة الدين ، فكذلك تبدل الحال فأصبح الدين عاجزاً أمام سلطة العقل .

وبما أن الدين كان قد فقد قوته فلم يكن يرجى أن تستطيع أحكامه مقاومة المفاهيم الحرة التى روجتها عقول أنفلتت من قيم الدين ..

ومن هنا لم يكن بدٌّ لكبح جماح العقل من استعراض حقيقة (العقل) والنظر فى أنه ليس إلا مجرد عضو مثل بقية أعضاء الإنسان الأخرى . وأن وظائفه وطاقاته محددة ! !

* * *

والجدير بالتفكير أن التاريخ يعيد نفسه ، فإن محكمة الدين الكنسى القاسية للعقل فى العصور الوسطى قد انتهت ، والآن حل الدين متهماً فى محكمة العقل القاسية .

وإن (محاكم التفتيش) الشهيرة للعقل كانت محاكم مؤقتة عارضة . وقد قام الدين فيها بإحراق ألوف من أتباع (العقل) فإلى أى مدى فى ظل انقلاب الأحوال يبقى الدين سالما مصونا من بطش محاكم العقل التفتيشية الجديدة ؟

لقد حانت ساعة الأنتقام ... !! (١)

ولاشك أن (لاك . وباركلى . وهيوم (٢) (١٧١١ — ١٧٧٦ م) قد مهدوا السبيل لطغيان العقل إلى حد كبير ، وكذلك أثبت (روسو) إمكانية الاستغناء عن الدين بتركيز على أهمية الفطرة والتوجيه الباطنى مع أنه — فى الوقت نفسه — قد أثبت لنا — من حيث لايدرى — أن العقل لايمكن أن يكون مقياساً قطعياً فى مراحل الحياة الدقيقة ومسائل الحياة واليقين المهمة .

فلسفة كانت :

ولكن (كانت) كان هو أول من حدد حدود العقل بفلسفته الانتقادية .

ويراد بهذه الفلسفة أن الإنسان يستطيع بنفسه أن يختبر وأن يمحص (قوته العلمية) ويعين حدودها قبل محاولته تحصيل علوم الأشياء .

وبالعكس من ذلك فإنه يبدأ فى (الفلسفة الادعائية) استخدام قوة العلم تحت أصل محدد بدون استعراض هذه القوة وفحصها فحصاً نقدياً (٣) .

وهكذا يتم فى الفلسفة الانتقادية (عكس الفلسفة الادعائية) اختبار ملكة العلم (ماكينة العلم) نفسها ثم يعرف فى ضوئها ما هى المسائل التى يمكن أن تحل بواسطة هذه الملكة ، وما هى المسائل التى تخرج عن نطاقها (٤)

---

(١) هذا تصوير رائع من المؤلف لرد الفعل الأوربى ضد الدين ، بسبب موقف الكنيسة من العقل ... والنتيجة للفعل ورد الفعل هى أوربا المادية التى نبذت الدين والأخلاق وعبدت العقل .. وسيدمرها العقل !! (المراجع)

(٢) دافيد هيوم / ولد فى ٧ مايو سنة ١٧١١ فى أدنبرة بسكوتلندا وتوفى فى أدنبره فى ٢٥ أغسطس سنة ١٧٧٦ وهو فيلسوف ومؤرخ اقتصادى وكاتب (المراجع) .

(٣) مقدمة كتاب (كانت) نقد العقل المحض .

(٤) تاريخ الفلسفة الحديثة ٢/٥٢ .

(كانت) والعقل :

إنّ (كانت) لايجرح العقل الخالص عندما ينتقد (العقل المحض) كما يظهر من اسم كتابه ، بل إنه يبيّن لنا حدوده فقط ، وهو — بعدذلك — يعلى منزلته على العلم غير النقى الذى يأتى من طريق الحواس المشوهة فى رأيه وبذلك فإن معنى العقل (الخالص) — عند (كانت) هو العلم الذى يحصل بطبيعة الذهن الداخلية وتركيبه ، هذا العلم عنده لايحصل بالحواس كما أنه يكون منفصلا عن جميع أقسام التجربة الحسية .

والفقرات الآتية من كلام (كانت) — تؤيد ذلك — يقول كانت :

« ليست التجربة فقط المجال الذى ينحصر فيه فهمنا ، إن التجربة تبين لنا ما هى ، ولكنها لاتبين لنا أن الذى وقع قطعا كان ينبغى أن يقع ولايقع غيره ، ولذا فإنه لايحصل لنا بالتجربة (علم الحقائق) العامة قط ، كما أن عقلنا الذى يعتنى بالحقائق العامة خاصة ، لايستطيع أن يطمئن إلى كل معطيات هذا العلم التجريبى ، بل يثور عليها .

وينبغى أن تكون الحقائق العامة التى تتصف بالإلزام الداخلى (الباطنى) حرة من التجربة ، أى أنها حقائق صحيحة مهما كانت تجربتنا صحيحة أو باطلة قبلها أو بعدها .

إن علم الرياضيات يكون ثابتاً يقينيا ، وإننا لانتصور أن التجربة القادمة قد تخالفه ، فنحن نستطيع أن نتيقن أن الشمس تطلع غداً من المغرب ، ولكن لايمكن أن نتيقن — مهما حدث — أن الاثنين فى الاثنين تنتهى إلى غير الأربعة .

هذه حقائق ثابتة مطلقة ، ولايتصور أن تكون قط خطأ .

ومن أين تحصل ميزة الإطلاق والإلزام هذه ؟

إنها لاتحصل بالتجربة بل الذى يحصل بالتجربة هو الحواس والوقائع كل منها على حدة .

إن هذه الحقائق تصل إلى ميزتها المطلقةاللازمة عن طريق فكرنا وعقولنا أى بالطريقة الفطرية الثابتة التى تعمل أذهانناوفقها، فإن ذهن الإنسان ليس المادة الخام التى تصنع منها الشموع وتشكل علىصور مختلفة حتى تستطيع التجربة والحواس أن تكتب عليه أحكامها العابثة، كما أن هذا الذهن ليس إلا اسما مجرداً لمجموعة الأحوال الذهنية، إنه عضو فعال يصوغ الحس والتصور ويرتبه، كما أنه عضو يحول كثرة التجربةالمنتشرة إلى نسيج من الوحدة الفكرية المنسجمة (١).

نقد (كانت) للوك وهيوم :

يقول (كانت)عن فيلسوف انجلترا الشهير (جون لوك) : « بما أن لوك رأى فى هذه التجارب الحسية تصورات العقل الخالصة فحسبهامأخوذة من التجربة، فإنه أخطأ فاستخدم هذه التصورات فى المعلومات التى تفوق حدود التجربة كثيراً (٢).

ويقول عن ديفيد هيوم (DAYID HUME) (١٧١١ — ١٧٧٦ م) :

« إن هيوم قد فهم أنه بما أن استعمالهذه التصورات يجب أن يكون خارج نطاق التجربة فإن أصلها يكون بديهيا، إلا أنه لم يستطع أن يفسر لنا لماذا لم يفهم العقل التصورات التى ليست مرتبطة بنفسها فى العقل ارتباطاً وجوبيا كارتباطها بالعرض المعروض (والعرض هو الذى يكون لتصوره كثرة حسب الإدراكات المشاهدة) (٣)

وإنه — أى هيوم — لم يفهم نكتة أن العقل يمكن أن يكون بهذه التصورات مؤسساً للتجربة التى تظهر فيها الأعراض علينا، ولذا سلم مضطراً بأن هذه التصورات مأخوذة من التجربة (٤).

---

(١) ول ديورانت : قصة الفلسفة ٢٣٩ .
(٢) نقد العقل المحض ١٥٥ .
(٣) سبق التعريف به (المراجع) .
(٤) السابق ١٥٥ .

ثم يقول (كانت) بعد ذلك :

« ولكن الاستقراء التجريبي للتصورات العقلية ، الذى وقع فى ورطته لوك وهيوم . لايطابق المعلومات العلمية الخالصة التى حصلت عندنا ، مثل معلومات الرياضيات البحتة والطبيعيات العامة ، ووقائعها نفسها ترد عليه » (١) .

ونحن لانقصد هنا الكلام على الفلسفة الانتقادية ، ولا التعليق على نظريات (كانت) فى الموضوعات المختلفة . بل نلقى الضوء على فلسفته الدينية والخلقية بصفة إجمالية .

المراحل الثلاث عند (كانت) :

يظهر من دراسة المباحث الخلقية عند (كانت) أنه قد مرت عليه ثلاث مراحل وآراء كل مرحلة تتفاوت فيما بينها .

-- وفى المرحلة الأولى يبدو أثر (روسو) واضحا . وأنه كان يرى فى ذلك الوقت أن كل حكم خلقى مصحوب بنوع من التأثر يكون التأثر به وأخذه مباشراً وسريعاً .

ولكن (كانت) فى هذه المرحلة أيضاً لايرى الوجدان المباشر كافياً وحده للنجاح الخلقى مثل روسو ، فإنه يقول فى موضع من تاريخ الفلسفة الحديثة : « إن أساس الخير يقوم على أصول تعتبر عظيمة شريفة بالنسبة إلى سعتها وعمومها ، وهذه الأصول ليست مرادفة أو مطابقة تماما لقواعد العقول ، بل تبنى على تأثر يوجد فى صدر كل إنسان . وهو انفعال بجمال الفطرة الإنسانية وبوقارها (٢) .

---

(١) السابق ١٥٧ .

(٢) تاريخ الفلسفة الحديثة ٢/٧٩ .

وفى المرحلة الثانية نلمح فى نظرية كانت الخلقية محاولة اكتشاف أساس عقلى للأخلاق لايحتاج إلى تجربة ، وذلك على أصل أن العلم العقلى يمكن أن يكتسب حراً من قيود التجربة أيضاً . ذلك أن النظرية التى كانت سائدة فى ذلك العصر هى أن التصورات الخلقية تكتسب بالعقل الخالص لا بالتجربة .

يقول (كانت) :

« إن الأحلام فى معناها الحقيقى تعنى حرية الالتزام بقانون عام ، ويظهر ذلك لأن الإنسان يرى التوافق مع فطرته ، وتقع له السعادة ولو لم تكن السعادة هدفه . فإن السعادة والأخلاق لاتتوقفان على الأحوال الخارجية ولا على المؤثرات الانفعالية ولا على أحكام ذوى السلطة (١) .

ـ وفى المرحلة الثالثة من مراحل الأخلاق عند (كانت) تنشأ صورة خاصة لنظريته الخلقية بناء على المؤثرات المختلفة ، وهو يرى خلال هذه المرحلة أن القانون الخلقى أيضاً مماثل لقوانين الفطرة ولقيم أصول الأخلاق بتحليل الشعور الخلقى الواقعى والعادى .

تحليل الشعور الخلقى عند (كانت) :

اكتشف (كانت) بتحليله لأنواع الشعور الخلقى ناحيتين :

الأولى : أن القانون شعور داخلى عظيم .

والثانية : أنه موافق لفطرة الإنسان الحقيقية .

وهو يقول فى ذلك ! :

« إن الإنسان يتأكد فى الشعور الخلقى العادى أن القيمة الخلقية لعمل ما ، لاتنحصر فى آثاره الخارجية بل يكون مناطه على النية الداخلية . والخير الحقيقى يتجسد فى النية الحسنة ، وليس الوجود الحقيقى للخير يتجسد فى

---

(١) المكان السابق .

ظهوره فى الخارج ملموساً بل يتمثل فى شخصية صاحب العمل ، ولذا لايسمى حسنا إلا العمل الذى ينشأ عن طريق الشعور بالمسئولية » (١) .

وعند (كانت) أن قوانين الأخلاق هى قوانين داخلية ؛ وعظمتها فوق جميع التجارب . وكذلك لن يكون أساس الأخلاق قائماً عنده على الدين ولا على علم النفس ، دون أن يمنع ذلك أنه يدخل فى الحضارة العليا تزكية النفس (الأخلاق) ، وكل حسنة خلقية لاتصدر عن الطبيعة الفطرية يجعلها (كانت) تكلفاً وطلاء كاذباً لطبيعة سيئة .

ناحية طريفة :

وثمة ناحية طريفة فى أخلاقيات (كانت) وهى أن الأخلاق اختيارية عنده ولاتحتاج إلى مقدمات من خارج فطرة الإنسان وطبيعة العمل نفسه .

وأيضاً فالأخلاق عنده حره غير مقيده بقيود الطبيعيات وما بعد الطبيعيات والنفسيات . والقضايا الدينية .

ومن الواضح أن طريق العبور من الأخلاق إلى الدين عند (كانت) صار صعباً بإطلاقه لهذه الحرية الشخصية ، ومع هذا فقد صرح (كانت) بأن الأخلاق وحدها يمكن أن تكون أساساً للدين .

فلسفة (كانت) الدينية :

والشىء الأساسى فى فلسفة (كانت) الدينية أنها ناقصة من الناحية التاريخية والنفسية معاً . ومع أنه يترك عملية التأريخ للدين لعلماء الدين أنفسهم فإنه لم يشعر بحاجة إلى وجود النواحى النفسية لأنه لم يلاحظها — من وجهة نظره . !

والأصل أن (كانت) ليس عنده تصورات واضحة للدين لأنه كان كان ينظر للدين من وجهة نظر النصرانية فقط ، حيث لم يطلع على غيرها ، فهو لهذا يتكلم عن موضوعات الخطيئة الأولى والغداء وغيرهما ، ثم إن

---

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة ٢/٨٩ .

السؤال المهم هنا هو: ماذا يبقى لدى النصرانية بعد فصل الأخلاق عن الدين ليكون هناك موضوع لمناقشة مفيدة ؟

(كانت) والدين :

وفيما يلي نسوق بعض آراء (كانت) عن الدين :

« ينبغي أن يوضع الدين والإيمان بعيدين عن متناول العقل ومجاله ، إلا أن أساس الدين الخلقي يجب أن يكون مطلقا في هذه الناحية ، غير مأخوذ من التجربة الحسية المتنازع عليها ، وأن لا يدنس بدنس العقل المخطىء ، بل ينبغي أن يؤخذ من الإدراك المباشر للذات الداخلية حتى نثبت أن العقل الخالص قد يكون عمليا ، أي أنه يستطيع تحديد إرادته بنفسه دون مساعدة شيء تجريبي .

ومعنى ذلك أن الحس الخلقي (فطري في ذاته) وليس مأخوذا من التجربة . وينبغي أن يكون الأمر الخلقي الذي نحتاج إليه كأساس للدين أمراً مطلقاً (١).

(كانت) والمقياس الخلقي :

وبما أن أساس الدين عند (كانت) ليس قائما على منطق العقل النظري بل على العقل العملي للحاسة الخلقية ، فإنه ينظر إلى كل كتاب مقدس وإلى الوحي بمقياس القيمة الخلقية ولكنه لا يجعله مقياساً وحكماً للقاعدة الخلقية . وعند (كانت) أن منزلة العقائد والكنائس وقيمتهما تعودان إلى أنهما تساعدان على النهضة الخلقية للإنسان .

يقول (كانت) :

« لقد جاء المسيح إلى الدنيا ليوحد عن طريق الالتزام بالقانون الخلقي ، ولهذا الهدف فإنه قد ضحى بحياته . وإن المسيح قد قرب حكومة الله من

---

(١) قصة الفلسفة / ول ديورانت ٣٥ .

الأرض ،ولكن وقع خطأ فى فهم قصده ، فقامت حكومة القساوسة بدل حكومة الله .

ثم إن الناس بدل أن يتحدوا ويرتبطوا بالدين قد تفرقوا آلاف الفرق والفساد يبلغ ذروته حينما تصير الكنيسة آلة لحكومة ثورية وحينما يصير رجال الدين (الذين يرجى منهم أن يربحوا العالم الحائر القلق المنكوب بالإيمان والأمل والمودة ويرشدوه) وسيلة للظلم السياسى والجدل الكلامى والإضلال المتعمد للناس » (١)

إله (كانت) :

يجعل كانت ذات (الإله) الهدف الحقيقى للعقل المجرد ، ولكنه يرد جميع الأدلة التى يقدمها الفلاسفة على وجود الله (٢) .

إنه يقول : « إن الذى يسرى فيه ويحركه الدافع الخلقى يكون مضطراً للإيمان بإله واحد بدون حاجة إلى دليل (٣) .

سوء فهمه للدين :

ويرى (كانت) أن الإنسان بميوله الخلقية قد شكل ، بل وأكمل تصورات الدين بدون إرادة منه ،وختم بها الوحى . ولا يمكن أن يعرف الإنسان بغيته من الإيمان بالألوهية عن طريق الأحداث الخارجية أو التاريخية (٤) .

وبسبب انعدام التصور الواضح للدين لدى (كانت) فقد اعتمد على بعض المقولات ، فهو يرى أن فى طبائعنا أسوة حسنة لا تفهم ، وهى هدف فطرتنا

---

(١) قصة الفلسفة ٣٥٦ .

(٢) مقدمة فى نقد العقل المحض ٧٠ .

(٣) تاريخ الفلسفة الحديثة ٢/١٠٣ .

(٤) السابق ١١١

فى أعماقها الباطنة . ولقد قال الإنجيل إن المسيح ابن الله ، جاء إلى الأرض واختار صورة الإنسان. وبالتالى فتصور ذات تكون إلها وإنساناًمعاً هى هدف كمال الفطرة الإنسانية (١) .

مآخذ على فلسفة (كانت) :

وخلاصة القول إن وجودالله وبقاء الروح والنبوةوالاختيار الإنسانى وما يشبه ذلك من المباحث الدينية الأساسيةليست أموراً واضحةفى فلسفة (كانت) بصفة جيدة . ومن هنا قال بعض الناقدين إن مؤلفات (كانت) مليئة بالأمور المتضادة مثل الجبر والاختيار ، والجنوح الخيالى والإلحاد بالدين مع الاعتقاد فى الله .

وقد قال البعض : إن (كانت) بعد تركه للدين قد توقف عن إفساد إيمان الناس خشية أن تفسد أخلاق الناس على نحو أكثر ، وأن يتهم هو بهدم بناء الدين المتداعى (٣) .

حيرته فى أمور الدين :

ولاشك أن تربية (كانت) الدينية بواسطة والديه قد جعلته يظهر فى جميع مراحل الحياة حاملا شعلة التفكير الدينى ، ولكنه بعد ما تقدم فى العلم وغير مناهج الفلسفة الملتوية لم يقنع بالدين السائد، بيد أن الذين وصفوه بترك الدين قد أخطأوا فى فهمه . نعم، إن آراءه عن الدين ليست واضحة ولكن الظاهر أن سبب ذلك هو حيرته ودهشته حول بعض أمور الدين بصرف النظر عن الجوانب الأخلاقية الشامخة، وعلى سبيل المثال فإن (كانت) يجعل الحس الخلقى أساساً للدين ويجعل العادات والأعمال الدينية بدون أساس من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنه ينجح فى إثبات دين العلم بطريقة جيدة .

---

(١) السابق ١١٠

(٢) المكان السابق .

(٣) قصة الفلسفة ص ٨

إن (كانت) يقول :

إن الإنسان لايستقيم على طريق القانون الخلقى بدون العقائد الدينية . هذا من ناحية ومن ناحية أخرى يرى (كانت) أن هدفه الأخلاقى يعتمد على أن تعمل إرادة الإنسان وفق قانونه الباطنى متخلية عن جميع الأغراض والأهداف (١) .

ولو كانت العقائد الدينية لازمة فإن استقلال الأخلاق ينعدم – فى رأى كانت – مع أنه عنصر جوهرى لفلسفة أخلاقه .

نظرته إلى العبادات والشعائر الدينية :

وكذلك لم يكن (كانت) يولى العبادات الدينية والشعائر أى نوع من الأهمية ، مع أنها تلعب دوراً مهما فى تحريك أوتار الحياة ، وإشباع الشرايين التى لم يصل إليها العقل الخالص عند كانت ولا غيره .. وينكر (كانت) أثر المعجزات والدعاء أو التضرع إلى الله مع أن الأعتماد على الأمل فيها ضرورى لإبراز جوانب الإيمان واليقين .

إيمان (كانت) بعقائد الدين :

ثم إن استدلال (كانت) على الإيمان بالعقائد الدينية معقد ومبالغ فيه . ومثال ذلك أن الضرورة التى ينشأ عنها الإيمان تختلف عنده عن جميع الرغبات والغرائز الممكنة ، بل إنه شىء باطنى ونفسى محض . وهذا الإيمان عند (كانت) مقتضى العقل الخالص ونتيجة للقانون الخلقى فى النفوس الإنسانية . ولكن هل توجد هذه الضرورة فى جميع الناس ويشعر بها جميع الأفراد بصفة لازمة ، سواء كانوا يتبعون قانون (كانت) الخلقى أم لا ؟ إن الإجابة على هذا تحتاج إلى التجربة النفسية ، ولايكفى فيها العقل المحض .

---

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة ٢/١٠٥ .

وأيضاً فلماذا لايشعر اللذين يعملون بالقانون الخلقي دون الإيمان بهذه الضرورة ؟

محور عقيدة (كانت) :

إن التصورات الدينية عند (كانت) تصورات رمزية ، ذلك أن التصورات إذا لم تكن علمية ، فلابد أن تكون هناك حاجة إلى الرموز والتشبيهات على سبيل اللزوم ولكن ذمة (كانت) لم تبرأ لمجرد أنه فهم أن التصورات لاتعدو أن تكون رموزاً وعلامات وبالتالى فلماذا يلزم الجميع برموز خاصة؟ وينبغى أن يكون للجميع حق الاختيار لرموزهم حسب ضرورتهم .

وحينما يتقرر الأمر على هذا النحو من حق الاختيار الشخصى فمن الممكن أن يختار عقل رموزاً تكون خيرا من رموز (كانت) ! !

والحقيقة أنه لم يكن هناك محور قوى لمذهب (كانت) . بل إنه كان يكل إلى الله تلك الأمور التى يشعر بضرورة الإيمان بها على أنها أمور فوق تصورات العقل ! !

أخلاقيات (كانت) والمجتمع :

ولم تكن أخلاقيات (كانت) لدى المفكرين قوية مؤثرة بحيث تحدث فى المجتمع تغييراً ثوريا ، فقد كانت تتم بالخصائص الثلاث التالية :

١ ـ لقد أثبت (كانت) أن قانون الخير الإنسانى يوجد فى جوهر الفطرة ، وهو قانون مختص بالإنسان ، ولا يتحقق فى الحياة العملية ، إلا حينما يصل الإنسان إلى معرفة نفسه ولكن(كانت)لا يدلنا على طريقة فعالة للحصول على معرفة النفس ، كما أنه لايوضح لنا سبيل إزالة الحجب التى تحول دون الوصول إلى هذه المعرفة .

٢ ـ أثبت لنا (كانت) بعد فصله للأخلاقيات عن ما وراء الطبيعة وعن الطبيعة وعن الأمور الدينية أن الأساس الثابت للأخلاق يوجد فى الناحية

العملية والسلوكية للإنسان ، ولكنه فشل فى الاستدلال على مايبرز هذا الأساس وينفع عامة الناس وخاصتهم .

٣ ـ أثبت (كانت) أن القانون الخلقى المغروس فى فطرة الإنسان يشعر بأن الإنسان عضو فى مملكة روحية عظيمة . وبهذا الشعور يفضل الإنسان ترك اللذه والميول الغريزية فى سبيل أدائه المسئوليات . ولكن حينما تغلب العواطف الجامحة الأخرى ، فإن (كانت) لايدلنا على الوسائل التى تحيى الشعور بوجوب أداء المسئوليات ، فى حين أنه لابد من الاعتراف بأن هناك عناصر فى الفطرة الإنسانية تخضع لقانون الأخلاق الباطنى بوسائل معينة بعد صراع كبير .

طريقة استدلالات (كانت) :

وكذلك يوجد نقص كبير عند (كانت) فى إثبات مبادئه وطرق استدلاله ، (فكانت) مثلا قد رفع القانون الخلقى آماداً بعيدة فوق التجربة المعاشية العامة بحيث لم يعد يظهر أن هناك صلة مفهومة بينه وبين الواقع العملى . وصحيح أن وجهة النظر هذه ترفع منزلة القانون الخلقى وتعظم شخصية الإنسان ، ولكن حياة الإنسان وأعماله تتعلق تماما بالمظاهر العملية ، ولذا يصعب سد الفراغ الذى ينشأ من جعل الأساس الخلقى منعزلا عن التجربة .

والظاهر أن هذا القانون المنعزل (الماورائى) لن يستطيع توجيه إرادة تعمل فى عالم التجربة العملية بدون قوة مؤثرة ، والحقيقة أن هذه الصعوبة قد وقعت بصرف النظر عن نفسية « سيكلوجية » القانون الخلقى ، فإن (كانت) لا يؤسس الأخلاق فى مرحلتها الأخيرة على أى تأثير خارجى لأن مثل هذا التأثير كيفية انفعالية تنشأ من الكيفية التجريبية ، ولكن يصعب أن نجحد أن عملية التأثير الانفعالى ضرورية لتحريك العمل .

الأخلاق والحياة :

ومن ناحية أخرى يقول (كانت) إن العمل الصالح هو العمل الذى يحصل نتيجة الشعور بالمسئولية . ولكن صلة هذا الشعور بالحياة الاجتماعية أقوى منه بالحياة الفردية ، ولكن (كانت) لم يهتم بهذه الناحية كثيراً .

وخلاصة القول: إن الأخلاق متى ما قدمت فى صورة (دستور للحياة) لاتستطيع أن تقدم خدمة حقيقية فعالة فى الحياة العملية . وكان يرجى من الدين أن يسد هو هذا الفراغ ، ولكن طريق الوصول من الأخلاق إلى الدين — عند كانت — كان معقداً وصعباً بحيث إنه يمكن القول بأن الطمأنينة الفكرية قد تكون هى الثمرة الوحيدة لهذا المذهب ، فليست له صلة نافعة بالحياة العملية .

مناهج التنظيم الأخلاقى :

إن الطريق المستقيم لجعل الأخلاق مؤثرة ولتنظيمها كى تصبح دستوراً للحياة هو أن تؤسس الأخلاق على دعائم الدين الحى ، فإن الأخلاق فى هذه الحالة ترتبط لا محالة بالنفس الإنسانية وتستمر بارتباطها بالنفس قوة مؤثرة فى الحياة العملية .

ومن المعروف أن القلب يحتل مركزاً رئيسيا من اهتمامات الدين ، وهو ملكة روحية ربانية ، ووسيلة خاصة للعلم والإدراك ومحور لجميع الأعمال الإنسانية ، وحينما يكون أساس الإيمان فيه قوياً وثابتاً ترتفع أغصان خدماته الإنسانية وتظهر آثاره الطيبة فى جميع نواحى الحياة .

ويشهد تاريخ رسالات الأنبياء كله أنه ليس هناك شيء أقوى وأفعل فى تنقية القلب وتزكية الأخلاق من الإيمان الحقيقى .

(كانت) والإلحاد :

نحن نستشف فى بعض نظريات كانت وأفكاره — توجيها ميكانيكيا للحياة لم يطلع عليه عامة أتباعه ، ولو عرفوا حقيقته لحذروا منه .

فالأفكار التى أقتبست من خطبه طوال حياته تشير إلى أنه يمكن أن يكون الإنسان قد ارتقى من درجة الحيوان (١) .

---

(١) فكأنه اذن يؤيد دارون فى نظرية النشوء والارتقاء سواء أدرك ذلك (كانت) أو لم يدرك (المراجع) وانظر قصة الفلسفة ٣٢٥ .

صحيح أنه لم يقدم صورة واضحة لهذا المعنى وكان يسير دائما على حذر ولكن كيف نستطيع أن نغض النظر عن حقيقة أن (التوجيه الميكانيكى) هو الذى كان أساساً لنظرية (كانت) التى حاول بناء هيكل (اللادينية) الشامخة . ولذا لا يمكننا أن ننزه أفكار (كانت) من جرثومة الإلحاد واللادينية .

وخلاصة ما سبق أنه ليس ما نريده هو أن يظن القارئ أن أفكار (كانت) لم تقم بنوع من الإصلاح فى العصر الحديث . فلا يمكن أن يجحد أنه قد أحدث تحمساً لهذه الأفكار فى نفوس بعض الصالحين من معاصريه . وكان الناس يأترنه من مسافات بعيدة لحل مشكلاتهم الأخلاقية .

وكذلك كان شبابه الطاهر وحياته الكادحة رد فعل عنيف ضد أنانية العصر الحديث وانحطاطه . كما كان يحمل اتجاها لاشك فيه لتدعيم الخير والاتجاه الأخلاقى .

والحقيقة أن أفكار (كانت) ونظرياته لم تنجح فى القيام بالعملية الجراحية التى تحتاج إليها الأحوال . وفى إخراج الدم الفاسد الذى يتحتم إخراجه من جسم الحضارة الحديثة (١) .

فشل (كانت) وغيره :

وأخيراً فإن الشخصيات التى برزت فى العصر الحديث . وحاولت القيام بجهود إصلاحية لم تكن قادرة على أن تنفخ روح الإيمان والعقيدة فى القلوب والنفوس بعد أن تغيرت طبيعتها الداخلية وشوهت فطرتها الإنسانية . كما فشلت هذه القيادات فى أن تقود سفينة الحياة المعرضة للطوفان كى تصل بها إلى ساحل النجاة .

وأيضاً فإن الضوابط والحدود الفاصلة التى أريد إبرازها فى تلك الأحوال غير متحدة وغير متماسكة فيما بينها بحيث لم تكن بريئة من التلوث بجرائم عصرها .

---

(١) بل انه ليس باستطاعة أوربى ذلك .. اذا كان مصرا على مهادنة الكنيسة ومنافقتها . وعدم الوصول الى الحق المطلق . وهو وحدانية الله (المراجع) .

ولقد سبق فى السطور الماضية ــ كنموذج لهذه الجرائم ــ ما أورده (كانت) عن حرية التفكير والدين الطبيعى ، بحيث كان الاتجاهان (الحرية والدين الطبيعى) يسيران جنبا إلى جنب فى البداية ولكنهما اختلطا فيما بعد بالأفكار السياسية ثم ذابت كل هذه العناصر ، وظهرت فى صورة العلمانية اللادينية .

وهذا هو المحاط الذى انتهت إليه رحلة (كانت) الفكرية ! !

وياله من محاط تعيس ! !

الفصل الرابع

بعض نظريات الالحاد

التغيرات الأساسية :

فى الإمكان أن نؤرخ البداية هذا العصر من أوائل القرن التاسع عشر تقريباً ، ويستمر إلى نهاية السياسة الماكرة الخبيثة التى تحيط بإنسان اليوم .

وفى هذا العصر فسرت الحياة تفسيراً جديداً على النحو التالى :

١ — جعل أصل الإنسان حيوانيا بدل أن يكون أصلا علوياً .

٢ — تحولت دفة الفطرة الإنسانية ونقاؤها إلى ظلمة نظرية الغريزة .

٣ — تحولت نظرية (العفة) و (الشرف) إلى نظرية (الجنس) المستهتر

٤ — كسرت المرآة الروحية للإنسان بحجارة الاشتراكية الجامدة .

كلمة عن مفهوم النظرية :

ينبغى قبل الدخول فى تفصيل نظريات الإلحاد فهم بعض الأمور الأساسية نسردها على النحو التالى :

أولا : إن جوهر كل نظرية هو النقطة المركزية لها والفكرة الأساسية فيها ، وبهما يتحدد مكانتها ودورها .

ولذلك لايمكن صرف النظر عنهما البتة وقت تحليل النظرية ، وإلا تعسر الوصول إلى حقيقتها الأصلية .

ثانياً : لايمكن اتخاذ رأى قطعى فى نظرية بأسرها بمجرد النظر إلى منفعة جزء منها ، ولايستفيد الحكم حتى تكون جميع أجزاء النظرية وآثارها ماثلة أمام العين .

وكذلك لا يحكم بالمطابقة والاتحاد إذا كان التعبير عن جزء منها مشابهاً ومماثلا لنظرية أخرى .

ثالثاً : إن البيئة والظروف تلعبان دوراً فعالا في إبراز النظرية وتنشيطها فإذا لم تظهر نظرية كاملة في عصر ما بسبب الضغط الخارجي فإنه تجحد منافعها لهذا السبب ، ولا يحكم بأنها نظرية بالية (Out of date)

رابعاً : لكل عصر تفكيره ، ولكل شيء مكانه ، وقد يحتاج إلى مدة طويلة في تغيير أفكار العصور ومكانة الأشياء فيها ،وتعمل في إنجاح هذا التغيير كثير من المؤثرات الداخلية والخارجية ، وبالتالي فلا يمكن فرض نظرية بطريقة مفاجئة . ومن الواجب أن لا يشك في أهميتها وفوائدها لعدم ظهور الإقبال الشديد عليها وانجذاب الناس إليها .

خامساً : لقد تحول هذا العصر إلى (اللادينية) بعد أن قطع مراحل عديدة ، وإنه سيصل لا محالة إلى النهاية وفق السير الطبيعي ، ثم يفقد قوته ويمهد — من جديد — للعصر الديني ، كما لا تخفى آثار ذلك على العيون المبصرة للحقيقة في أيامنا تلك .

وفيما يلي نذكر أهم النظريات الإلحادية بشيء من التفصيل حتى يسهل تجلية الملامح الممهدة للعصر الديني .

١ — نظرية التطور

تنسب هذه النظرية إلى دارون (Charles Darwin) ١٨٠٩ — ١٨٨٢م ، ومن المعلوم أن التطور حقيقة . ووجوده ثابت في النظريات والأديان القديمة .

ولكن (دارون) هو الذي حاول تقديم التعليل الميكانيكي للحياة ، وأوضح أسباب التطور بطريقة خاصة ، وبهذا صارت هذه النظرية متميزة وممثلة للعصر الإلحادي ، ومنسوبة في الوقت نفسه إلى شخصية دارون .

مصطلحات ثلاثة : ويجب لكى نفهم هذه النظرية أن نطلع على ثلاثة مصطلحات أساسية :

١ — مصطلح (تنازع البقاء) أى الصراع من أجل الحياة والبقاء .

٢ — مصطلح (الانتخاب الطبيعى) أى انتخاب الأشياء الصالحة فطرياً للقيام والبقاء .

٣ — مصطلح (البقاء للأصلح) أى أنه لايبقى إلا الشىء الذى يصلح للبقاء .

وقد جعل داروِن رأيه فى أن البقاء للأصلح وسيلة لتطور كل شىء ، وذلك أن النبات والحيوان والإنسان — كلها تخرج إلى عالم الوجود من مرحلة غير متطورة للحياة نسبياً ، ويكون التمايز بين الأنواع ببقائها ، والبقاء إنما يحصل للأنواع التى تكون أعضاؤها وقواها ملائمة للبيئة التى وجدت فيها ، قادرة على تحديات البيئة والعصر .

وفى ضوء هذه القاعدة فإننا نرى جميع الكائنات الحية مشغولة بالصراع من أجل الحياة ، فالذى يستطيع امتلاك آلات الصراع فإنه يبقى ، أما الذى يفتقد هذه الآلات فإنه يكون غير صالح ويتعرض للفناء .

وهذا الصراع قد يوجد بين أفراد جنسين مختلفين كما قد يوجد بين أفراد الجنس الواحد ، ولكن استمرار الحياة لايتيسر إلا للأفراد الذين توجد فيهم خصائص ملائمة للبيئة .

ونوضح ذلك بالمثال التالى :

لقد كان هناك فى الزمن القديم قطيع من البهائم العجماء (١) ، وهذا القطيع يضم حيوانات مختلفة من ناحية قوتها على الدفاع ، فرأس بعضها كان ضعيفاً ، ورأس البعض الآخر كان قوياً ،

---

(١) البهيمة العجماء هى التى من غير قرون .

ويمكن أن يكون قد وجد بينها – على سبيل الافتراض – بهيمة توجد فيها علامة ظهور القرن وهو الذى سيصبح آلة الدفاع – فيما بعد – ! !

– ولقد كانت السباع والحيوانات القوية الأخرى تهاجم هذا القطيع . وهى تحاول الدفاع عن نفسها . ومن الواضح أن النجاة من هذا الهجوم لم تكن متيسرة إلا للبهائم التى تتمتع بقوة دفاعية أكثر ، أما التى لاتتمكن من الدفاع عن نفسها فإنها لابد وأن تنهزم وتموت .

ثم إن هذه البهائم المتبقية كانت تتناسل . وتنتقل منها قوة الدفاع – التى حافظت على الآباء – إلى الأولاد ثم تتطور فى الأحفاد وهكذا .

وهذه القرون أو آلات الدفاع الجديدة كانت إنتاجاً جديداً للفطرة ، بينما كانت ميزة شخصية الحيوانات فى الأولى التى بدأت فيها بشائر القرون ، ولكن جهد الصراع من أجل البقاء وعملية الانتخاب الطبيعى كانتا مستمرتين فلذا تحولت هذه الآلات إلى خصائص جنسية فيما بعد .

وهذا المثال يوضح لنا مفهوم المصطلحات الثلاثة إلى حد كبير ، أى أن الصراع كان واقعاً بين البهائم والحيوانات القوية من أجل الحياة واستمرار البقاء ، وكان القوى منها مصمما على إبادة الضعيف ، وهذا هو معنى التنازع من أجل البقاء .

وقد انتصرت فى هذه الحروب البهائم التى كانت رؤوسها أقوى وفيها بشائر القرون وهذه البهائم هى التى بقيت حية . وهذا هو الانتخاب الطبيعى .

وقد تقررت أهلية الحياة – فى حلبة الصراع من أجل البقاء – للبهائم التى كانت تملك قوة المقاومة والدفاع أكثر من غيرها . وهذا هو معنى البقاء للأصلح .

وبما أن الأهلية كانت منوطة بقوة الدفاع ، وكان عمل الانتخاب الطبيعى متوقفاً عليها ، فلذا تكيفت خصائص آلات الدفاع هذه وفق البيئة والظروف . ثم صارت بالتدريج خصائص للجنس كله ، ثم تناقلت أجيال

البهائم جيلا بعد جيل . هذه الخصائص بطريقة وراثية . بينما كانت هذه الخصائص فى البداية خصائص شخصية وإنتاجاً جديداً للفطرة .

رجعة سلبية :

لقد توقف مبدأ الانتخاب الطبيعى فى المثال السالف الذكر على منفعة إيجابية واضحة وهى آلات الدفاع التى كانت مناطاً للأهلية . ولكن فى كثير من الأحايين تقع الخسارة محل النفع ويكون ذلك ... أيضاً ... وفق نظرية الانتخاب الطبيعى الذى قال به داروين . ومثال ذلك أن فصيلة من الطيور ذوات الريش قد حلت فى جزيرة ما بسبب الطوفان . ثم ألقاها الطوفان فى البحر فهلكت . فلو فرضنا أن طيراً منها كان بدون ريش ولم يتمكن من الطيران مع فصيلته ، فعاش وبقى بسبب ضعفه ونقصه . وهذا الضعف سوف ينتقل فى أولاده ، وسوف تتوالد ذريته متصفة بهذا النقص ، ومن ثم تستمر سلسلة (الانتخاب) هذه إلى أن يكون الخلو من الريش ميزة لهذا النوع من الطيور (١) .

إجابة غير مقنعة :

ولاشك أن عمل (الانتخاب الطبيعى) يأخذ اتجاها قهقريا فى هذه الصورة وقبحه فيها واضح ، ولكن ليس هناك رد سوى أن عمل التطور يكون حيناً للأمام وحينا للتخلف . ولا يخفى على أهل النظر ما فى هذا الرد من الضعف .

وهناك كثير من الملاحظات والاعتراضات على هذه النظرية لم تلق رداً شافياً ، والآن لقد تجمعت أمور كثيرة ضد هذه النظرية جعلتها نظرية بالية ، ومع ذلك لم يخل منها إلى الآن قسم من أقسام العلوم والفنون . وما انتشرت البحوث المعارضة لها ، ولهذا يجب معالجتها من حيث تأثيرها على الحياة الإنسانية (٢) .

---

(١) تاريخ الفلسفة للفريد ويبر ص ٤٩٢ .

(٢) الحق أنه ظهرت بحوث علمية رصينة كثيرة فندت هذه النظرية ، وآخرها لازال بالفرنسية وهو قيد الترجمة للدكتور موريس بوكاى وعنوانه : أيها الانسان : من أين جئت ؟ ولكن الاعلام الذى يسيطر عليه التوجيه الصهيونى يركز أضـــواءه على مدرسة داروين فتبدو كأنها المنتشرة ... مع أن نظرية داروين قد انتهت علميا (المراجع) .

الإنسان فى ميزان هذه النظرية :

والإنسان وفق هذه النظرية صورة متطورة للحيوان ، أى أن الإنسان كان أولا قرداً ، ثم حصل تطور متدرج فى مدة تقترب من مليون سنة تحول خلالها القرد إلى صورة الإنسان المعروف ، وعلى غرار تطور الجسم حصل تطور فى الذهن والتفكير بالتدريج ، ولذا كان دماغ الإنسان مثل دماغ الطفل ، وكانت القوة المتخيلة لديه معدومة ، ثم حصل التطور العقلى والفكرى بالتدريج واستحق الإنسان أن يسمى (إنسانا عاقلا ناطقاً) .

الجسم والنفس :

وحسب نظرية دارون التى شرحناها من قبل فإن الإنسان ليس إلا صورة متطورة للحيوان ، وهذا ينطبق عليه من الناحية الجسمية والذهنية معاً ، والمماثلة ثابتة أيضاً فى شعور الإنسان والحيوان .

نعم : يختلف أتباع دارون فى طبيعة هذه المماثلة على أساس هل الإنسان هو الذى هبط إلى مستوى الحيوان أو أن الحيوان هو الذى ارتفع إلى مستوى الإنسان ؟ أى هل ذاب الأعلى فى الأدنى أو الأدنى فى الأعلى ؟

والذين يجعلون الإنسان مماثلا للحيوان يثبتون القيم والخصائص الإنسانية من الأعمال النفسية والكيفيات العضوية السابقة للحيوان ، ويجعلون هذه القيم أصيلة فى الحيوان مثل الإنسان ، حتى يجعلوا القوى الذهنية والفكرية أيضاً ظاهرة مكتسبة وبالتالى فقد يستطيع الحيوان اكتسابها بالتطور التدريجى مثل الأعضاء الجسمية .

أما الذين يجعلون الحيوان مماثلا للإنسان فيثبتون القيم والخصائص الإنسانية فى الحيوان على أنها خصائص فرعية ، حتى إنهم يقولون بوجود العواطف الدينية وغيرها من المشاعر المحترمة فى الكلاب والقرود والذباب .

المادة والإنسان فى هذا التعليل :

وكلا الفريقين يتفقان على أنه لم يدخل فى مرحلة من مراحل نمو الإنسان أى جوهر آخر أو تأثير روحى .

وأصل التطور التدريجى الذى يعمل فى أعضاء الجسم الإنسانى هو الذى يتطور من الحالة الأدنى إلى الأعلى ، وهكذا يجرى هذا الأصل فى النظام العصبى والذهنى ، ومعناه أن الخصائص الذهنية والفكرية إنما تظهر نتيجة للتطور التدريجى .

وخلاصة القول إن أساس العمل فى نظرية التطور هو المادة . وكل من النفس والروح والعقل والشعور صورة من صور المادة ونتيجة من نتائج نشوئها وتطورها .

وفى هذا التعليل الميكانيكى تسرى المادية فى عروق الإنسان بحيث ينسد الطريق أمام الأشواق الروحية ، وسيبدو لنا وكأن التفكير المادى الذى أستوردته حركة الإصلاح الدينى من الحضارة اليونانية والرومانية قد تمت له الغلبة وأنه قد قطع مراحل الكمال بهذه النظرية .

الفلسفة وتأثيرها :

ما الإنسان ؟

ومن أين جاء ؟

وإلى أين يذهب ؟

إن هذه أسئلة تحاول الفلسفة الإجابة عنها منذ آلاف السنين ، ولكن كل إجابة من إجاباتها قد لونت بلون صاحبها وظهرت بها فلسفة معينة ، وكذلك كانت كل إجابة ابنة عصرها الذى جاءت فيه الإجابة .

ومن هنا لم نحصل حتى الآن على شئ صالح قطعى . ولا سلمت فلسفة ما من آثار العوامل الشخصية وتأثيرات البيئة والعصر .

الفلسفة والروح :

والعمل الأصلى للفلسفة هو تعيين حدود (الفكر) و (العمل) بعد فهم مشاعر الإنسان وعواطفه الفطرية ، وبذل الجهد للحفاظ على قوة أوتار الحياة الدقيقة .

— وجدير بالذكر أن عالم الفكر والعمل الذى لا يمكن فيه تغليب العقل على العواطف ، ولا يوجد فيه سبيل لإيجاد التوازن فى حركات الأوتار(١)... هذا العالم لا يستطيع أن يقود سفينة الإنسان المتورطة فى الأمواج إلى ساحل النجاة .

أما تحريك أوتار الحياة التى يكمن فيها سر بقاء الحياة ، وكذلك التفاعل الذى يجب وجوده مع عملية التحريك حتى توجد الأنغام المنسجمة ... كل ذلك خارج عن استطاعة (الفلسفة) إلى حد كبير . ! !

ولهذا السبب لم تنجح الفلسفة فى أى عصر من العصور فى معالجة مشكلات الإنسانية وطمأنة روح الإنسان ، واضطر العالم — مجبراً — لأن يحتمى بسياج الدين .

الفلسفة والدين :

والواقع أن كل فلسفة جديدة إنما تظهر فى عصر انحطاط الدين ، ويقبلها الناس بديلا عن الدين الذى يكون قد فقد دوره فى عصرهم ، وبما أن هذه الفلسفة لاتستطيع إقناع الروح فإنها تبذل الجهود الكثيرة للتفاهم مع الدين وللتوفيق بين مقولاتها ومبادئه ، ولو بتعسف شديد .

— وهذا الوضع قد ينفع الفلسفة بدون شك ، فإنها تقوى أرجلها (الخشبية) بالدين ولكن هذا — فى المقابل — يضر الدين كثيراً ، فإخضاع الدين لهذا المنهج يفقده دوره الأصلى وتتلاشى قوته بين عوامل الهجوم

---

(١) الأوتار هى الطاقات الانسانية المحركة للكيان الانسانى (المراجع)

والدفاع والتأثر والتأثير حتى أنه لينتهى الأمر بالدين إلى القضاء على وضعه الريادى وينزوى فى وضعه الدفاعى فقط .

الآثار النفسية لنظرية التطور :

ونحن نذكر فيما يلى بعض الآثار النفسية لنظرية (الارتقاء) حتى يتضح مدى تأثر الأخلاق بها فى المجال السلوكى .

إن نظرية « الإنسان حيوان متطور » تتصل بعلم الحيوان ، ولكن آثارها على علوم النفس والأخلاق آثار بعيدة المدى .

فإن المؤثرات النفسية الأربعة المعروفة وهى (الفطرة) و (الوراثة) و (البيئة) و (التربية) وكذلك عوامل الخير والشر المحصورة فى القوة الملكية والبهيمية وغيرها من العوامل الشائعة حتى الآن .....

هذه كلها لم تحفظ أية واحدة منها من آثار نظرية التطور ، ويتضح ذلك فيما يأتى ...

تأثير النظرية فى الفطرة :

الفطرة هى اسم للملكة قبول الحق التى تودع فى كل إنسان هبة من الله سبحانه وتعالى فى مرحلة الخلق البدائية .

وقد ورد تعريف الفطرة فى معجم (Lexxicon) كما يلى :

إن الدستور Constitution هو القانون الطبيعى الذى يخلق عليه الطفل فى بطن أمه من الناحية الروحية (١) » .

وكل إنسان يكون باراً صالحاً فى مرحلة الفطرة وإلى أن تغلب المؤثرات الأخرى المضادة عليه تبقى الفطرة مثل الضوء التوجيهى وكأنها علامات المرور فى كل منعطف ومنقلب .

---

(١) نظام التقدم والتخلف لتقى الأمينى ص ٣٤ (بالأوردية) .

وحينما تتم الغلبة للشهوات يصبح هذا النور هزيلا خافتاً ، وعندما تسنح الفرصة لبروزه يتحول من جديد إلى صورة النور التوجيهى القوى .

وكأن هذه الفطرة جوهر أصلى مستقل للحياة الإنسانية ، وبتوافقها تنمو الإنسانية وتقوى ، وكلما تعارضت مع ناموس الأخلاق ابتعد الإنسان عن الفطرة الإنسانية النقية واقترب من الحيوانية .

مكانة الفطرة فى هذه النظرية :

لاتوجد فى نظرية التطور مكانة مستقلة للفطرة ، كما أن محتواها لايعنى (الجوهر) العلوى بل إنها تعنى الفاصل المميز بين الإنسان والحيوان نتيجة لعملية التأثير والتأثر والتطور التدريجى للكيفيات النفسية الحيوانية ، وفى أعماقها تسرى جراثيم الحيوانية والآثار المادية .

وإذا كان هذا الوصف المميز قد ظهر نتيجة للتطور فقد كان من اللازم أن يكون هناك نظام لتطهيره وتنقيته من الآثار الحيوانية والكثافات المادية ولكن لايوجد لذلك أثر فى نظرية التطور من أولها إلى آخرها ، بل إن الوصف المذكور ينعدم فى ثنايا شرح هذه النظرية .

وكما تبدو الفطرة واضحة نقية فى الحقيقة الإنسانية فإنها كذلك تبدو كثيفة معقدة فى التطور الحيوانى ، ثم إنه ليس هناك سبيل لحفظها من الآثار المضادة ، وليس هناك نظام فكر وعمل لإبراز عملها .

وفى مثل هذه الحالة لايخفى على أهل النظر نوعية الاتجاه الذى تتجه إليه أخلاق الإنسان وعمله . وتجب الإشارة هنا إلى أن الفطرة فى الحياة الإنسانية مثل البذور التى توجد فيها قوة كامنة للنمو والإثمار ، ولكن هذه البذور لم تحفظ فى نظرية التطور من الخواص الحيوانية والمؤثرات المادية .

وإذا كان الإنسان ملوثاً بهذه الخواص والآثار فى مرحلة الفطرة نفسها فكيف يتوقع أن تبرز فيه الاتجاهات الروحية فيما بعد ، أو أنه يصير أهلا لإبراز الشرف والكرامة الإنسانية .

شبهة وردها :

ويمكن أن يرد علماء النفس هنا بأن وصف الفطرة فى نظرية التطور إنما هو نتيجة غريبة معقدة لاختلاط الجبلات العديدة وتفاعلها وردود فعلها .

وهذه الجبلات حيوانية فى ذاتها ولكنها عندما اتحدت فيما بينها تغيرت خواصها وآثارها ووقع التغير فى نوعيتها الحيوانية أيضاً .

كما أن بعض العناصر المتضادة تختلط فيما بينها فيحدث بهذا الاختلاط وصف آخر جديد يختلف عنها فى النوعية .

وعلى هذا فلا يصح القول بأن عنصر الحيوانية يوجد حتى بعد ظهور وصف الفطرة أو أن الكثافة تبقى كما كانت .

ولكن هذا الجواب قابل للبحث والنظر حينما تبقى مكانة الفطرة المذكورة قائمة فى توضيح نظرية التطور ويتم الاعتراف بدورها المستقل فى الحياة . ولكن هذا بعيد فى ذلك النظام الذى لايتحقق فيه وضع مستقل للروح ، بل إنها لاتظهر فيه إلا نتيجة لعمل المادة ويتم فيه قطع مراحل التطور عن طريق جعل القوة المادية هى المعيار فكيف ينشأ فيه سؤال عن مكانة الفطرة المذكورة أو عن جوهرها ؟ ! !

أثر نظرية التطور فى الوراثة :

من المعروف أنه توجد فى الإنسان كثير من الخصائص والأهليات بالوراثة ، وإنه ليتأثر فى كثير من الأحاسيس والعواطف بآبائه وأجداده .

وحسب تحليل نظرية التطور فإن غريزتى المادية والحيوانية يقعان تحت شعور الوراثة . ووفق نظرية التطور فإن روحية الأسلاف التى تدين للمادية وتنتج عنها لو قويت بحيث تنتقل بالوراثة فليس هناك سبيل لبقائها وتطورها بعد انتقالها ، ومن هنا لابد أن تنكمش بواسطة سيطرة البيئة المادية ، وقد لاتنبعث بعد ذلك البتة .

الإنسان فى هذه النظرية :

وبما أن هذه النظرية تنظر إلى الإنسان من الناحية المادية والحيوانية فقط فلذا لا تطبق عليها إلا التجارب التى تتم فى المعامل على الفئران والقرود وغيرها من الحيوانات ، ذلك لأن البحوث التى أجريت على النفس الإنسانية معظمها بحوث تنبنى على التجارب التى أجريت على الفئران والقرود .

فنى البداية رسم العقل بتدقيقه والهوى بجموحه صورة غير واضحة للإنسان ثم جمعت الأدلة على ذلك بالبحث والتنقيب .

وقد تحدد قالب مسبق للذهن والفكر ثم أجريت تجارب عديدة لإثبات ذلك .

وإنه لوتعين للإنسان صورة مسبقة فى نظرية التطور لكان قالب الذهن والفكر مختلفا عنها ولاختلفت أنواع هذه التجارب والبحوث وكيفياتها إلى حد كبير .

ولنا أن نتساءل هنا : إذا لم يكن هناك ضمان لصحة الفكر وإدراكه فكيف تكون الأشياء المبينة عليه قطعية ؟ فالأصل – أولا – هو صحة البناء الفكرى للإنسان ، وعليه تتوقف صحة جميع التصورات والأخيلة . وهذا هو سبب تأكيد الوحى الإلهى لضرورة سلامة الفكر والذهن عن طريق الإيمان واليقين .

البيئة والإنسان :

إن تأثر الإنسان بما حوله أمر واضح ، ولكنه كذلك يستطيع التغلب على البيئة كما تدل الوقائع والأحداث . ولكن نظرية التطور ترى أن الإنسان مكره على موافقة البيئة فإن ضمان البقاء وفق نظرية التطور يحصل للذين توجد فيهم خصائص موافقة البيئة وعوامل التكيف .

وفى هذه النظرية فإن البيئة هى الفاعلة المتصرفة ، والإنسان عاجز منهزم أمامها وهذا هو طريقة الوحيد للبقاء والتطور .

أثر نظرية التطور فى البيئة :

إن المراد بالبيئة هى البيئة المادية ، فإن النزعة الروحية لايطلبها الإنسان ولايحتاج إليها للبقاء فى هذه النظرية الدارونية ، وانتخاب الفطرة وبقاء الأصلح يتوقف على القوة المادية والفخر والمباهاة ، وليست هناك منزلة للخير والمساواة والمؤاخاة والشرف والعدالة ، والجوانب الروحية عامة ، وعلى هذا فالقوة هى مقياس الشرف والفضل ، وبهذا المقياس فالصالح هو الذى يبقى بالانتصار ، وغير الصالح هو الذى ينهزم فيفشل ويخيب (١) .

وهذا توجيه جديد للإنسانية ، وميزان خاص للصلاح ، وقد تغير فيه مقياس الفضل والشرف بحيث يخشى القضاء على القيم والأخلاق الإنسانية الفطرية .

وليس الإنسان فى هذه النظرية هو ذلك الإنسان الذى يعتز بشرفه وتثور غيرته وحميته ، بل إنه إنسان تحول إلى نوع آخر تختلف أهدافه ومقاصده ومبدؤه وغايته .

أثر نظرية التطور فى التربية :

إن التربية تهدف بالوسائل المختلفة إلى التخلص من الآثار الخاطئة للوراثة وهى تقوى الإرادة للتغلب على البيئة .

وقد تثور بعض العواطف ، ويضغط على البعض الآخر بأفكار إيجابية وسلبية حتى يظهر فى الإنسان جوهره الإنسانى ويستحق الشرف والفضل الأصليين .

ولكن الآثار التى تظهر فيها الحياة الإنسانية من خلال التربية تشجعها نظرية التطور على الظهور ، وإن جرائيم البيئة التى تحاول صون الإنسان منها — تعمل على بقائها واستمرارها نظرية التطور هذه ! !

---

(١) قصة الفلسفة ص ٥٠٢ .

والجدير بالذكر أن العقائد والأخلاق والسلوكيات التى تتم تربيتها بتقوية الملكات الخاصة تصبح بلا طائل فى التوجيه الجديد للإنسانية ، بينما يتم تشجيع الأعمال والأفكار التى تنمى القوة البهيمية .

وخلاصة القول أن حدود نظرية التطور وآثارها تختلف تماما عن الحدود أو الخطوط التى تتحرك حولها حياة الإنسان ، وعن قالب الحياة الذى صاغه الوحى الإلهى للإنسان وهذا الاختلاف ليس فى بداية النظرة للحياة فقط ، بل إنه ليتجلى فى البداية والنهاية وفى كل مراحل البقاء والتطور .

على أن الآثار المدمرة لنظرية التطور لايمكن أن تشاهد كلها ؛ لأنها نظرية غير متصلة بالفطرة ، ولهذا يمكن أن يتوقف البعض فى الاعتراف بالحقائق المذكورة أيضاً ، ولكن الذين يعرفون خلفيتها وملامحها العامة لايترددون فى الاعتراف بالأمثلة التى ذكرناها عندما تسيطر هذه النظرية .

والحقيقة أن هذه النظرية لاتقف آثارها عند ما ذكرناه فحسب ، بل إن هذه النظرية برزت حينما فشل الدين النصرانى السائد فى حل مشكلات الحياة وإرواء غلة الإنسان ، وكان العالم مضطراً للبحث عن سبيل للطمأنينة والسلام اللذين لم يجدهما أمام ضغط الكنيسة إلا فى الإلحاد .

وفى مثل هذه النشأة لايتوقع من نظرية التطور أن تحفل بالدين والأخلاق ولهذا فإننا لانرى فى هذه النظرية ذكراً للإله أو الروح ، أوغيرهما من الحقائق الدينية ، ويتقرر فى النظرية بناء تاريخ الكون بحيث لايكون هنالك صور لذات فوق الكون ، ولا تسليم لهذه الذات بفعل شىء أو سيادته .

الدين والفلاسفة :

وكما أن طائفة من الفلاسفة لاتولى الدين أهمية ، فكذلك تعترف طائفة جادة أخرى بأن الدين حقيقة فطرية ، فيرى (رينان) أن الجبلة الدينية فى الإنسان فطرية مثل فطرية عمل العش فى الطيور (١) .

---

(١) سبق التعريف به .

وذهب (نتشة) ويستالوزى من الفلاسفة إلى تأكيد أن جوهر النفس الإنسانية هو الشعور الدينى ، وأن الدين بمنزلة الروح للحياة المدنية (١) .

نعم إنهم لايقصدون بالدين هنا ذلك الدين الذى يكون لصياغة الحياة صياغة جميلة شاملة ، وقد يستخدمه الناس لتحقيق المصالح السياسية — فى رأيهم — بل إنه الدين الفطرى الذى يحرك أوتار الحياة بالإيمان واليقين ، ويربى الحياة على الرضا بالنواحي الإيجابية والسلبية ويحمل للعالم رسالة الأمن والسلام .

والحقيقة أن روح الإنسان لاتطمئن بدون الدين حتى وإن نجحت البشرية فى تجميل الحياة وتزينها فى الظاهر بأطلية خارجية براقة .

وهذا الشعور الفطرى بالدين يثبته لنا هؤلاء الذين قد أنكروا الحقائق الدينية فى بداية أعمارهم ، ولكن حينما نضج شعورهم ودفعتهم الحياة إلى البحث عن حقيقة فإنهم قد لجأوا مرة أخرى وبإصرار إلى موفأ الدين الآمن ويقينه الكبير .

دارون والدين :

وقد اضطرب دارون نفسه فى أمر الدين ولم يستطع أن ينكره إنكاراً صريحاً فكانت له فلسفته التى فشلت فى تهدئة الروح من جانب ، وكانت له فى ناحية أخرى فطرته التى تحملهعلى الاعتراف بما وراء العقل ، وأيضاً كانت له فى ناحية ثالثة نظرية الانتخاب الطبيعي، التى كانت وسيلة للخراب لا البناء ، وكان تطبيقها يدعو إلى الصراع والجفاء والظلم ، وفى ناحية رابعة كانت هناك عواطف المودة والرحم ، التى حملت دارون على الاعتراف بذات رحيمة كريمة قادرة .

---

(١) يستالوزى فلسفة تمدن وتعليم ص ١٨٥ .

وبما أن داروين لم يستطع التكيف مع هذه الأحوال والنزعات المتضادة فلقد صار متقلب الفكر ولا سيما فى أمور الدين ، فكان حيناً يبدى رياً ، وحيناً يبدى رياً آخر مضاداً لريه السابق ، وكلما طلب منه أن يبدى رأيه فى اتجاه الدين كان يشير إلى وجود الشر دائماً . (١)

ولقد أجاب داروين شاباً سأله عن ريه فى هذا الأمر بما يلى :

« إن أفضل نتيجة أعملها هى أن هذا الأمر وراء طاقة العقل الإنسانى ، ولكن مع ذلك يمكن أن يؤدى الإنسان واجباته (٢) .

كان داروين يقول أولا بالوحى ، وكان يؤمن بالإله حينما نشر مؤلفه المهم « أصل الأنواع » ثم تغيرت أفكاره بالتدريج حتى جعل يسمى نفسه لا أدريا ، ومعنى ذلك أنه كان يرى أن علمه لايكفى لحل هذه المسألة (٣) .

« اللاأدرية نفسها اعتراف بعجز الإنسان ، وهى تحمله على الاعتراف بدنيا العلم والمعلومات التى يحتم الوصول إليها تغير النظريات الموجودة ، ولكن من المؤسف أن الفرصة لم تتح لداروين لينطلق إلى شاطئ الأمان واليقين ومات وهو فى هذه الحالة من القلق والاضطراب .

نعم إن الموقف الداروينى السالف من الدين يوضح أن فلسفة داروين كانت قد فشلت حتى من خلال نظره أيضاً فى حل كثير من مشكلات الحياة وفى إرواء غلته الشخصية

علاقة نظرية التطور بالفطرة الإنسانية :

من خواص الفطرة الإنسانية أنها تتيح فرصة الاختبار للأشياء المعارضة للفطرة ، ولكنها لا تدوم على هذه الحال مدة كبيرة ، والأمر نفسه وقع

---

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة ٢/٥٢٤ .

(٢) السابق : ٥٢٥ .

(٣) نفس المصدر ٢/٥٢٤ .

لنظرية التطور ، فإن الدين السائد وهو دين الكنيسة كان قد انهزم وذهبت الثقة بالنظريات المحركة للحياة ، وعلى هذا تم قبولها بالاضطراب وتم الانتفاع بتزيين أقسام العلوم والفنون ، وإن لم يتحقق صوت الانسجام مع الفطرة قط .

وإن موجة القبول لنظرية التطور بدت تنتهى الآن ، وترتفع الأصوات المعارضة ، وتعلو على الأصوات الموافقة ، وتستخدم لإبطال النظرية تلك الأدلة نفسها التى استخدمت لإثباتها ، ولذا فلن تطول مدة الانخداع بالنظرية وسوف تبرز الفطرة نفسها وتعطى نفسها حق الحكم والفصل . ومع بروز التصريحات المختلفة والعديدة انعقد مجلس البحث والمناقشة فى شيكاغو (أمريكا) بإشراف مؤسسة (دارون) إشترك فيه نخبة من علماء العالم ، ودارت بينهم مناقشات حادة ، وهذا يدل على أن الفطرة قد بدت تبرز دورها وتطالب بحقها الأصيل ! !

مغالطة علماء النفس :

لقد قال بعض علماء النفس فى نظرية التطور : إن انعكاسات ما وراء الطبيعة تعمل فيها ، وإن أساسها قائم على التصور الدينى ؛ حيث إن فيها الصعود من الأدنى إلى الأعلى ، والأعلى من الجميع هو الله تعالى (١)

ولعله مما يجب التساؤل عنه هنا بعد التسليم بوجود التصور الدينى فى النظرية : هل الإنسان إذا سلمنا بأنه كان حيوانا فى الحالة البدائية — فهل كانت توجد فيه العواطف الدينية حينذاك ؟

وقد رد الخبراء على هذا بأن صلة العاطفة الدينية لاتقف عند عاطفة واحدة :

بل إنها نتيجة غريبة ومعقدة لاختلاط الغرائز العديدة وتفاعلها فيما بينها ، وهذه الجبلات وإن لم تكن فى البداية دينية ، ولكن وقع فيها تبادل التأثير

(١) مقدمة بستالوزى عن فلسفة المدنية والتربية .

والتأثر بسبب التطور التدريجي ، ونتيجة هذا ظهرت العاطفة الدينية ودخلت في جبلة الإنسان .

ولكن مع ذلك — فإن الأسلوب الذى يختار لشرح نظرية دارون لايدخل فيه مبحث الدين إلا من باب حسن الظن ومن محاولات التوفيق بين النظرية والدين .

— والأصل أن الشعور الطبيعي للدين كان قد أقلق دارون والخبراء الذين كانوا معه ، ومن هنا رأى (دارون) السلامة فى فلسفة (اللا أدرية) واضطر زملاؤه للتأويل والتوجيه حتى يهدأوا أو يسكنوا إلى شاطئ من شواطئ اليقين الوقتي والنسبي .

محاولات التفاهم مع النظرية :

ومن مآسى التاريخ الطريفة أنه قد تم فى كل عصر من العصور العثور على سبيل للتوفيق بين الفلسفة والدين ، وكثر الضغط على الدين أكثر من الضغط على الفلسفة ، ومثل هذا وقع مع نظرية التطور ، فقد رأى اتباع النصرانية وجوب التفاهم والالتقاء بين دينهم والنظرية ، ولهذا قالوا بأن « بداية الحياة كانت بفعل التكوين الأصلي من الله ، ومن ثم خلق الله الصور الأولى للحيوانات ، ثم طبق الله تعالى قاعدة الانتخاب الطبيعي لخلق الأنواع الخاصة » (١) .

والجدير بالذكر أن الأديان التى اعترفت بتغير الأنسان — كعقيدة — لا توجد فيها صعوبة كبيرة فى التوفيق مع النظرية ، بل يظهر سبيل التفاهم بتغيير يسير ، كما نرى فى قول النصرانية (١) بأن الإله حل فى المسيح عليه

---

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة .

(٢) المقصود النصرانية المحرفة .. أعنى نصرانية بولس ، وقسطنطين ، أما نصرانية المسيح عيسى المنزلة من عند الله فهى نصرانية توحيد نقى تمام (المراجع)

السلام ، وأنه – تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً – قد تحول إلى إنسان ، أو كما نرى فى الديانة البوذية وأديان الهند الأخرى التى تعترف بتغير الإنسان فى شكل من التناسخ المتتابع .

ومن الواضح أنه إذا سلم بعقيدة أن الإنسان يمكن أن يتحول إلى صور أخرى ، أو أن الإله يمكن أن يتجسد فى الإنسان فأية غرابة – ياترى – فى جعل الإنسان صورة متطورة للحيوان ، وأى صعوبة تواجه القائلين بهذه النظرية ! !

الإسلام ونظرية التطور :

نعم : إن الدين الذى لايعترف بتغير الإنسان ، ويعلن بوضوح أن الناس قد حرفوا الأديان خضوعاً للمطامع والهوى ، كما يعلن أن الأديان الصحيحة لاتقول بمثل هذا التطور الكاذب – فإنه سينظر إلى نظرية التطور بمنظار آخر تماما ، ولن يحاول التوفيق بسبب بعض صور التشابه الجزئى ، كما أنه لن يذهب مذهب (التفاهم) الذى يعكس هزيمته الداخلية .

إنه ينظر إلى مبدأ النظرية وغاياتها وإلى خلفيتها وآثارها وصلتها بالمستقبل البشرى . وأكبر من ذلك كله أن تعاليمه ستكون جامعة وكاملة بحيث لاتكون هناك حاجة إلى الاهتداء فى طريق الحياة إلى شئ آخر .

وليس هذا الدين إلا الإسلام .. والإسلام وحده من بين سائر الأديان .

الاستدلال بابن مسكويه والشيخ الرومى :

لقد حاول بعض الناس – جاهدين – جعل نظرية التطور موافقة لدين الإسلام وأفكار الفلاسفة المسلمين كابن مسكويه (١)

---

(١) ابن مسكويه : هو أبو على أحمد بن محمد بن يعقوب الملقب بمسكويه ولد حوالى سنة ٣٣٠ هـ وعمر طويلا فمات سنة ٤٢١ هـ اتصل بخدمة عضد الدولة وابن العميد وابنه وقد عرف باستيعاب علوم عصره وبرز فى الطب والتاريخ وكانت له منافسة مع ابن سينا . (المراجع) .

والشيخ جلال الدين الرومى ،(١) وذلك مثل قولهم .إن ابن مسكويه قد ذكر مراتب موجودات الكون وجعل الإنسان عالما صغيرا . ترى فيه العناصر الأربعة وخواص الجماد والنبات والحيوان وآثارها ، أو أن ابن مسكويه أثبت النبوة بارتقاء النفس الناطقة ، وهذا ـ فى ـ استنتاجهم يشير إلى التطور والارتقاء(٢) .

وكذلك يعرض هؤلاء الأبيات التالية لمولانا الرومى على أنها تشير إلى التطور .

آمـــده أول به أقليم جمـــاد وزجمادى درنباتى أو فتـــاد

(لقد جاء أولا إلى عالم الجماد . ثم انتقل من الجماد إلى النبات)

سالهــا أندر نبساتى عمر كــرد وزجمادى يادنا ورد ازنــبرد

(ولقد عاش فى النبات سنوات ومن جموده لم يتذكر شيئاً عن تطوره) .

وزنباتى جول بحيوال أوفتـــاد نامذش حال نبساتى بيج يـاد

(وحينما انتقل من النبات إلى الحيوان لم يتذكر شيئا من أحوال النبات)

جـز بمال ميلى كرد أردسوت آل خاصة در وقت بهار ضمير آل

(وذلك باستثناء الميل الذى يجده نحوه خاصة فى وقت الربيع)

بيمجو ميل كود كامل باما ورال سرميل خود ندارد درلبـــــال

(مثل ميل الأطفال إلى الأمهات وهذا الميل غريزة وليس مجرد ميل لشفتيه على الرضاع) .

---

(١) جلال الدين الرومى : محمد بن محمد بن الحسين بن أحمد البلخى الرومى ، جلال الدين ولد سنة ٦٠٤ هـ ١٢٠٧ م وعالم بفقه الحنفية والخـلاف وأنواع العلوم ، ثم متصوف كما يقول صاحب « المثنوى » المشهور بالفارسية ، وصاحب الطريقة « المولوية » المنسوبة الى « مولانا » جلال الدين ٠ ولـد فى بلخ (بفارس) وانتقل مع أبيـه الى بغـداد . فى الرابعة من عمره ، ثم استقر فى قونية سنة ٦٢٣ هـ ، وعرف جلال الدين بالبراعة فى الفقه وغيره مـن العلوم الاسلامية ، فتولى التدريس بقونية بعد وفاة أبيـه سنة ٦٢٨ واستمر يتكاثر مريدوه الى ان توفى بقونية سنة ٦٧٢ هـ ١٢٧٣ م ٠ (المراجع) ٠

(٢) الفوز الاصغر لابن مسكويه ص ٨٨ ـ ١٠٠ ٠

بمجنين إقليم تا إقليم رفـــــت ناشد اكنول عاقل ودانا وزفت

(هكذا ذهب من إقليم إلى إقليم حتى أصبح الآن عاقلا وعالماً وخبيراً)

وتدلنا هذه الأبيات على تطور قوى الإنسان بالتدريج بعد الاعتراف بوجود الإنسان المستقل ، وكذلك تدل على وجود خواص الموجودات المختلفة وآثارها فى سيرته ، ولا دلالة فيها لتطور الإنسان الكونى ولا لجعله صورة متطورة للحيوان .

الشريعة الحقة وابن مسكويه :

وأصل المشكلة أن هؤلاء (الملفقين) قد أثبتوا الحقائق الدينية بأسلوب الفلسفة والتصوف ، ولا يمكن أن نتصور استيعابهم لنظرية دارون القائمة على (اللادينية) .

وأمر الشيخ الرومى أوضح فى هذا الباب ...

أما ابن مسكويه فنذكر آراءه نحو الشريعة الحقة حتى تتضح الحقيقة للذين يحاولون ظلم أفكار الرجل ... يقول ابن مسكويه فى موضع :

« ينبغى لكل شخص أن يحصل من الدنيا على ما يناسب منزلته وطاقته وحاجته فلا يطلب ما ليس له ولا يقصر عما جعل له ويدخل تحت الشريعة التى يلحقها فى أيامه ويلزم وظائف الدين »(١).

ويقول فى موضع آخر :من أكمل سياسة نفسه وتهذيب أخلاقه ، وقمع عدو نفسه الذى بين جنبيه صلح لتدبير منزل ، ومن صلح لتدبير منزل صلح لتدبير مدينة ، ومن صلح لتدبير مدينة صلح لتدبير مملكة ، فإذا استكمل الإنسان هذين الجزئين من الحكمة (أى النظرى والعملى) فقد استحق أن يسمى حكيما وفيلسوفاً ، وقد سعد السعادة التامة(٢) !؟)

---

(١) ابن مسكويه : الفوز الأصغر ص ٦٥ بتحقيق د/ عبد الفتاح أحمد اد طبع دار الكتاب اللبنانى .

(٢) المصـــدر السابق ٦٧ .

ويقول فى موضع ثالث : ومن وصل إلى هذا الموضع أيضاً فعلى رتب كثيرة ومنازل متفاوتة ، وربما سميت مقامات ، وليس يعرف كميتها إلا من مر بشيء من جنباتها ، وذاق بعض حلاوتها ، ومن هنا نتبين صحة ماقلناه فيما تقدم : إن المرء الذى ينظر من أسفل إلى فوق على تدريج صحيح هو الذى يعرف ربه معرفة لاريب فيها ، ويمكنه أن يراه بنحو ما يستطيع المخلوق أن يرى خالقه ، فإذا عكس نظره من فوق إلى أسفل وانحدر فيه كما صعد ، نظر إلى اشتمال هذا الأول اللطيف الواحد على ما دونه وإحاطته بالجميع إحاطة تقدير وتدبير ، كما أحاط العقل بالنفس ، والنفس بالطبيعة .. الخ (١)

الفلاسفة المسلمون والتطور :

والذين درسوا توجيهات هؤلاء الصالحين بدقة وإمعان لايشكون فى أن هناك فروقاً بين نظرياتهم وبين داروين أكثر من فرق الدين الذى هو فارق حقيقى بين المنهجين .

إن داروين — فضلا عن فارق الدين — يقول بالتطور العضوى ، وهؤلاء يعترفون بالتطور النفسى الذى يختص بالخصال الإنسانية والحيوانية ، والإنسان يمثل الاثنين فالعادات الإنسانية تمثل عندهم الفطرة والقوة المكنونة وغيرها من المؤثرات والعوامل أما الخصال الحيوانية فتمثل عندهم القوة البهيمية .

والتربية تنفع فى كبح جماح الغرائز البهيمية وتقوية ملكات الفطرة ، ولو لم يتم ذلك ، أو لو لم تنجح الجهود فى التربية فإن الخصائل الحيوانية هى التى تظهر فى الحياة وتتحقق الغلبة للمؤثرات البهيمية .

---

(١) الفوز الأصغر ص ٧٠ [وقد رجعنا الى أصل الكتاب فى طبعته العربية بتحقيق الدكتور عبد الفتاح فؤاد] ويتضح لنا أن التدرج الذى ذهب اليه ابن مسكويه وبعض مفكرى الاسلام هو تدرج نفس وفكرى وليس تدرجا فى نشأة الخلق مما اخترعه داروين ولم يخطر لفلاسفة الاسلام على بال .
(المراجع)

وإن محاولة إثبات المماثلة بينهما لمجرد هذه المناسبة أو الاستدلال بها إنما هو انخداع ومغالطة .

التفاهم بين الدين والفلسفة :

إن هذا المنهج التوفيقى لايضر الفلسفة بشىء فإنها ستنسحب من الميدان بعد قضاء مدتها ، ولكن هذا التوفيق سيضع عقبات كبيرة تقف فى سبيل الدين .

ونحب أن نقول إن الذين حاولوا تأويل آيات القرآن والأحاديث النبوية وفق نظرية التطور (١)، وتجنوا على الدين بهذه الصورة فإنهم لايستحقون منا الرد ، إنهم من الذين يجارون الزمن ، ويخضعون للأحوال ، ويتغيرون بتغيرها ، وليس لهم دين محدد ولا نظرية واضحة ، بل إن الذى ينتشر هو دينهم المصلحى (٢) ، والنظرية التى تسود هى نظريتهم التى يتاجرون بها ، وفى مثل هذه الحالة كيف نتوقع من أمثال هؤلاء أن يعيدوا النظر فى أفكارهم إنهم إذا فعلوا ذلك فسوف يتناقضون مع أنفسهم ومنطقهم ، وسوف يقضون على مصالحهم ! !

(٢) نظرية الغريزة

تنسب هذه النظرية إلى عالم النفس الشهير (ميكدوكل) (William McDogall) المتوفى فى سنة ١٨١٧ م . وترى هذه النظرية أن الجبلات التى تعمل فى فطرة الإنسان هى التى توجد فى الحيوانات ، وأن منبع جميع أعمال الإنسان وحركاته هى الجبلات ، ويتضح ذلك من التحليل الآتى .

---

(١) أو غيرها من النظريات الاقتصادية والمادية والعلمية المعرضة للتغيير ، ولا سيما اذا كان هدفهم الأكبر اخضاع الاسلام لهذه النظريات بحثا عن المناصب والمنافع وارضاء للحكام . (المراجع) .

(٢) هذا تعبير جميل يدين كل المنطلقين فى ميدان الترقيع بين الاسلام وهذه النظريات . (المراجع) .

ماهية الجبلة :

يوجد فى ذهن الإنسان بعض الاتجاهات الخلقية أو الوراثية وهى منبع الأفكار ومصدر القوة المحركة ، وهذا الميل النفسى الطبيعى الوراثى الخلقى يسمى (جبلة) (١) . ولو فصل هذا الميل الجبلى عن ذهن الإنسان لمدة لحظة فإن جسم الإنسان لن يبقى صالحاً لفعل ما ، وسوف يصير مثل ساعة فصل عنها الجهاز المنظم لها أو مثل محرك يقطع عنه التيار الكهربائى ، وتوجد فى هذا الميل قوة مقاومة شديدة ، وهى القوى الذهنية التى تحافظ على الإنسان الشخصية والاجتماعية وتقوم بتشكيلها وصقلها (٢) .

مصطلح الغريزة :

ذكر (ميكدوكل) تحديداً لمصطلح الجبلة على النحو الآتى :

« إن كل جبلة غريزية تنمو فى العضو الإنسانى بالتدريج ويمكن أن تظهر الجبلة فى صورة ناقصة جزئية قبل أن تصل إلى درجة الكمال ، ولكن الأمر ليس كذلك فى الحشرات ، فإنها تخرج إلى عالم العمل بعد التطور الكامل أو شبه الكامل ، وبعبارة أخرى فإنه لايوجد فى الحشرات عصر الشباب (النشوء والارتقاء) الذى يتم فيه العلم والخبرة ، والجبلات تنضج بالتدريج ، ولكن جميع الحشرات لاتحرم (عصر الشباب) فإننا قد رأينا من قبل — أن بعض الحشرات المنعزلة تتحرك وتتجول بحرية تامة قبل أن تبيض فى حالة مناسبة وتعمل أعظم عمل فى حياتها (وهو تربية الأولاد) فهذا هو عصر شبابها .

وفى هذا العصر لاتنضج الجبلات التى تحدد لنا عصر (الولادة) وملامح الجنين الواضحة الكبيرة ، فلو كانت الجبلة ناضجة لبدأ عملها ، وحسبما نعلم فإنه يبدأ عصر التأثير هذا بنضج (الجبلات) لابتغير فى البيئة ، وفى عصر

---

(١) علم النفس الاجتماعى ص ١٨ ، ٢٦ .

(٢) نفس المصدر : ٤١ .

الشباب هذا تتوجه رغبة الزنبور إلى جبلة ملء البطن ، فبيضة الجنين تملأ فى هذا الوقت بطنها فقط ، ولا تلتفت إلى الحيوانات الصغيرة التى تصيدها لأولادها فيما بعد ، وفى هذه المدة فإنها تعرف العلم المناسب الذى يجب لعمل هذه الجبلات فى هذه المرحلة بعد نضج الجبلات التناسلية (١) .

تقسيم الغرائز :

وللجبلة (الغريزة) قسمان رئيسان : (١) الإيجابى (٢) السلبى .

وتدخل فى الإيجابى جميع الجبلات التى تجذب إلى الأشياء التى يتوقف عليها بقاء الحياة وقيامها . .

وتدخل فى (السلبى) الجبلات التى تنفر وتبعد عن الأشياء التى تضر بالحياة . ويمكن تقسيم الجبلات — من خلال أقسامها الأساسية — إلى الجبلات التالية

(١) جبلة النجاة من الخطر (٢)جبلة المقاومة(٣)جبلة النفور والاحتقار (٤) جبلة أبوية لحماية الطفل (٥) جبلة الصراخ لدى المصيبة (٦) غريزة الجنس (٧) غريزة الطاعة والانقياد
(٨) غريزة حب النفس (٩) جبلة حب الاجتماع (١٠) جبلة طلب الغذاء (١١) جبلة الخوف والادخار
(١٢) جبلة البناء (١٣) جبلة الضحك .

هناك غرائز أخرى صغيرة سوى هذه الجبلات الكبيرة ، وذلك مثل العطس والكحة وقضاء الحاجة ، ولكنها لاتقوم بعمل كبير فى الحياة الاجتماعية (٢) .

---

(١) اسس علم النفس ص ١٤٢ .

(٢) ريبورت س . و . ت الجديد فى علم النفس ص ١٩٨ — الطبقة الأردية .

تقسيم الأفعال الغريزية :

تقسم الأفعال الصادرة عن الغرائز من حيث المجموع إلى ما يأتى :

١ ــ الأفعال التى تتعلق بحماية ذات الإنسان وشخصه .

٢ ــ الأفعال التى تتعلق بالحصول على الغذاء .

٣ ــ الأفعال التى تتعلق ببقاء النسل .

٤ ــ الأفعال التى تتعلق بالعلاقة الجنسية .

وينبغى أن يتضح أن الأفعال التى تسمى (جبلة) هى كلها من نوع الأعمال الاضطرارية العامة التى تنشأ من مهيجات حسية خاصة ، فحينما تمس مثل هذه المهيجات جسم الحيوان أو توجد فى البيئة حتى ولو على بعد فإنه تنشأ عنها هذه الأفعال (١) .

ولم يفرق القائلون بنظرية الجبلة بين الجبلة الإنسانية والجبلة الحيوانية ، بل إن (ميكدوكل) يبين لنا دور الإنسان الطبيعى باسم موكلى «Mowgli» (٢) لإثبات الاتحاد بينهما . ويراد بالإنسان الطبيعى الإنسان البدائى الذى دخل فى مرحلة الإنسان متطوراً من الحيوان الأعلى ولم تؤثر فيه العادات والتقاليد الإنسانية . وفى مقابل هذا هناك إنسان صناعي صنعه العصر الصناعى ، أى تجمعت فيه العقائد والأحاسيس والأفكار والعلوم التقليدية ، يقول ميكدوجل : « إن « موكلى » يتمتع بجميع الأهليات الحسية التى نتمتع بها ، وأيضاً يكون تمييزه الإدراكى قوياً جداً ومتطوراً كما تكون مدركات أكثر الوحوش ، وتوجد فيه أيضاً الجبلات التى يفترض أنها مشتركة فى جميع الحيوانات الثديية .

---

(١) دستور علم النفس ٤٥٩ ــ الطبعة الأردية / وليم جيمس .

(٢) مصطلح ميكدوكل (وميكدوكل عالم نفس كبير) وهو يريد من مصطلحه (موكلى) الانسان الطبيعى الذى دخل مرحلة الانسان الراقى .

وهذا الإنسان البدائى المتطور يسعى – وفق استثارات معينة – للحصول على الإشباعات لجبلاته الطبيعية بعد إدراكه للأشياء ولمواضعها المختلفة .

وهو مزود أيضاً بخبرة تهديه إلى حاجاته الجبلية المستمرة من عاطفة وجاذبية واستثارات تتصل بالنواحى الجبلية .

فهو يفرح ويستريح عند نجاحه فى إشباع حاجاته واستثاراته ، كما أنه يحزن ويقلق عندما يفشل فى تحقيق هذه الحاجات ، وكل ذلك يوجد فيه ولكنه لاتصدر عنه تعبيرات تترجم حاجاته واستثاراته باستثناء بعض الصرخات وبعض الأصوات وبعض الإشارات (١) .

ويقول (مكدوكل) بعد ذكر دور هذا الإنسان البدائى المتطور : « إننا نستطيع أن نفترض أن الإنسان الطبيعي يعيش حياة الاستثارة – حين لم يكن يتكلم – قبل أن ترفعه اللغة والتقاليد الاجتماعية المستقلة من صعيد المستوى الحيوانى إلى الصعيد الأعلى . ويغيب فى هذه الحياة كل من العقل والمبادئ والضمير والواجبات ، ولايوجد فى هذا المستوى من الحياة طلب السعادة الذى يخضع لاجتناب مواطن الألم ، كما لايوجد استمرار لسلسلة الحالات الاضطرارية؛ بل هى حياة الاستثارة الغرائزية والرغبات (البيولوجية) .

ولا نستطيع أن نقول إن المستوى الذى افترضناه للإنسان البدائى هو الذى كان يسكن فيه فوق الأشجار أو على سطح الأرض ، وكذلك فنحن لانعرف تفاصيل حياته الاجتماعية وأسلوب علاقاته الاجتماعية ، أو غيرهما .

وسواء كانت هذه التفاصيل أو العادات خاصة بالإنسان الذى يسكن فوق الشجرة أو فوق سطح الأرض ، فما لاشك فيه أن هذه الحياة كانت من النوع الذى صورناه آنفاً ، أى من نوع الحياة التى تتبع الاستثارة الغرائزية

---

(١) أسس علم النفس : لمكدوكل ص ٢٧٠ / الترجمة الأردية .

التي تشبه استثارات الحيوانات الثديية ، وكل ما هنالك من فروق بين أسلوب حياتهما أنه يوجد في الإنسان نوع من التبصر بالعواقب والتنظيم والانضباط .

ويقول (مكدوكل) عند ذكره التطور التدريجي في الإنسان البدائي (Momgli)

إن هذا الإنسان البدائي المتطور تكون ملكة تخيله أعلى وأرقى جداً بالنسبة لملكة تخيل الإنسان الآخر ، وسبب ذلك أن دوره وسلوكه يدل على تبصر بالمستقبل بصفة أقوى ، وفق التجارب السابقة التي يستلهمها ، وإنه يخطط — بنوع من العمق — لسلوكه ، حتى يتفادى الحوادث القادمة وحتى يكون مستعداً لها ولنظائرها .

وكذلك فإن هذا الإنسان يستطيع أن يتعاون هو وأصحابه في تنفيذ أية خطة يتفقون عليها تعاوناً شاملا فعالا لايوجد مثله في الحيوانات الثديية الأخرى (١) .

وعلى العكس من الحيوان الآخر الحقيقي فإن الإنسان البدائي المتطور تتكشف له — مع إمكاناته التخيلية العليا — قدرة على التمتع بقدر كبير من من الحرية ، ويكون مؤهلا كي يزاول أعماله وأفعاله ، وكي يستمر في جهوده إلى مدة أطول (٢) .

أساس نظرية الغريزة :

ويتضح مما سبق أن نظرية الغريزة قائمة على أن الإنسان صورة متطورة للحيوان ، وعلى هذا فمن الواجب تحقق المماثلة بين غريزتي الإنسان والحيوان . وحول هذا يقول الأستاذ وليم جيمس (٣) :

---

(١) اسس علم النفس ٢٧١ .
(٢) المرجع السابق ٢٧٢ .
(٣) جيمس وليم (١٨٤٢ — ١٩١٠) فيلسوف وطبيب امريكي حاضر بهارفرد في التشريح ووظائف الاعضاء وانتقل بعدئذ الى علم النفس والفلسفة . واهم مؤلفاته (مبادىء علم النفس) و (ارادة الاعتقاد) =

« إن الإنسان فى أصله حيوان مقلد ، وبناء على هذه الخاصية يتوقف رقيه المدنى (١) »

ويقول س . لايد ماركن (٢) :

« إن الإنسان حيوان قوي التفكير ، إنه يتميز بأنه يضع هدفاً لعمله » وفى موضع آخر يقول (ماركن) :

« حينما أصبح الإنسان إنساناً على النحو الذى نعرفه — بدأ يستخدم قوته المكتسبة الجديدة — لم يترك حينذاك حياته الحسية التجريبية إلى الأبد ، بل إنه نفخ فى نفسية حياته القديمة وروحها ، ومع أنه صار الآن كائناً ناطقاً ولكنه ذو عقل وناطق فى آن واحد ، فإنه لم يترك مشاعر فطرته الحيوانية وراءه ، بل جعلها عواطف مثالية خالصة » (٣) .

العواطف الخلقية : وبما أنه لافرق بين جبلة الإنسان وجبلة الحيوان ، كما يرى هؤلاء وأن الإنسان فى رأيهم حيوان مقلد فحسب ، فلهذا ينتهى رأيهم — لا محالة — إلى أنه لايوجد — عواطف خلقية مثل الحيوان ، بل إن هذه العواطف تكتسب عن طريق الفكر والتعلم والوراثة ، ولذا يقول (ميكدوكل) رداً على نظريات فلاسفة الأخلاق :

« لقد سود معلمو الأخلاق صفحات كثيرة حول العواطف الخلقية ، ولكنهم لم ينجحوا فى إلقاء الضوء الكافى عليها لجهلهم بالنفسيات وبسبب مصطلحاتهم العامية السخيفة (١) » .

= « ترجم الى العربية » و « صنوف من الخبرة الدينية » ، ومقـــالات فى التجريبية الأصيلة » . وكان جيمس مدرسا بارعا أحـــدث بمذهبه العلمى (البراجماتية) ولدراساته النفسية ولاسيما كتابه (احاديث الى المعلمين عن علم النفس) الذى ترجم الى العربية تاثير عميق فى اتجاهات التربيـــة فى العالم . (المراجع) .

(١) أصول علم النفس وليم جيمس ٣/٤٠٨ .

(٢) مقدمة علم النفس المقارن ص ٤١٨ .

(٣) أسس علم النفس ص ٥٩٦ .

ويقول أيضاً : « ونحن نأسف بل ونعترض لأن هذه الكلمة — أى الأخلاق — تستعمل لستر التشابه الجوهرى بين سلوك الحيوان والإنسان ، وأرى أن الذين يظنون أن أهليات الإنسان المختلفة هى جبلات ، ثم مع ذلك ينسبون سلوكه المعقد إلى العواطف — إنما هم مضللون بالاعتقاد الخاطئ القائل بأن الجبلة تساوى ماكينة متحركة فقط .

ونحن نسألهم فى أى صنف يضعون سلوك الحيوانات الثديية الأعلى ؟ هل هى نتيجة جبلة — ؟ ولو كانت نتيجة العواطف فما هى العلاقة بين العواطف والغرائز أو الجبلات (١) .

ويرد (مكدوكل) على نظرية أخرى لمعلمى الأخلاق فيقول :

« ثمة نظرية أخرى للفعل الإنسانى يحبذها فلاسفة الأخلاق كثيراً ، إنهم يقولون إن أعلى صور سلوكنا هى نتائج تأثير التميز والعقل «Pleason» ويكفى عندهم لتحقيق أغراضهم مجرد أن يسلم العقل بأصول عليا للفعل ، وبعضهم يفهمون العقل مرادفا للضمير والإرادة » (٢) .

الدين والوضع الفطرى :

ليس الدين من أصول الفطرة الإنسانية فى نظرية الجبلة ولا أنه غريزة مستقلة ، بل الدين فى هذه النظرية وليد عواطف عديدة ، وهو من اختراع الإنسان ، وبتأثير من العواطف التى تشكل الجزء الأكبر فى الحياة الدينية وهو ينشأ بالطريقة التالية :

١ — التقديس ٢ — الرهبة ٣ — الحيرة

والتقديس مركب من الحيرة والعجز ، والرهبة مركبة من التقديس والخوف ، والحيرة مركبة من الرهبة والعاطفة الرقيقة (٣) .

---

(١) نفس المصدر .
(٢) أسس علم النفس (المكان السابق) .
(٣) علم النفس الاجتماعى ص ٣٠١ .

والأصل فى هذه النظرية أنها ترى أن الدين قد ظهر نتيجة للتطور التدريجى لأوهام الإنسان وأفكاره ومعتقداته ، حتى إن خالق الكون من اختراع التطور الذهنى ، وصورة ذلك كما يتخيلها هؤلاء أن الإنسان حينما بدأ يشعر شاهد ما حوله من النظام المدهش والمناظر الرهيبة ، ومن هنا نشأت عواطف الحيرة والخوف ، ثم إنه فكر فى حماية نفسه من الأشياء المخيفة وبحث عن طريق للسلام وللمرفأ الآمن .

وقد عرف الإنسان — كما يتخيل هؤلاء — بعد نظر طويل أنه يمكن إرضاء هذه العناصر المرهبة بالتملق والتضرع ، ومن هنا بدأت العبادة وصارت الأشياء تعبد . ثم حصل تطور فى عبادة مظاهر الفطرة بتطور الشعور وبالرقى الفكرى إلى أن وصل الإنسان فى سبيل البحث عن سبيل حمايته إلى الدين الحالى ، وآمن بإله هو خالق جميع القوى ومالكها .

وهكذا ظهر الدين نتيجة شعور الإنسان بالعجز وخضوعاً لعاطفة الخوف ، وجميع تقاليده وأعماله من اختراع الإنسان ومن صنعه .

والسرد الآنف الذكر يشرح لنا نظرية الجبلة بحيث لم يجعل للخصائص الإنسانية غريزة مستقلة ،ولا تعرض لذكر قوة جوهرية يميّز بها بين الإنسان والحيوان تمييزاً خلقيا .

هذه النظرية والدين :

والأسس التى قام عليها نظام الدين والأخلاق لاتعطيها هذه النظرية أية أهمية بل إنها تهدمها من الناحية النفسية .

ومن الواضح أنه لايمكن إحداث أى تفاهم بين الدين وهذه النظرية فى مثل هذه الحالة ، ولايجوز الحكم بالمطابقة بينهما — بل حتى مجرد التقارب — بسبب المشابهة فى شرح جزء أو فى أسلوب التعبير عنه .

نقائص نظرية الجبلة :

وفيما يلي نقدم بعض الإشارات التي تدلنا — بجلاء — على أن هذه النظرية لم تتمكن من الوصول إلى فهم صحيح للفطرة الإنسانية :

(١) يتضح من المكانة التي منحها الله تعالى للإنسان في الكون ومن النشاط الابتكاري للإنسان أن هناك فرقا رئيسياً بارزاً بين نفسيتي الإنسان والحيوان ، وليس هذا الفرق نتيجة للتطور ، بل إنه فطري وخلقي .

(٢) لقد منح الإنسان قوة كبيرة للقصد والإرادة بحيث يستطيع أن يقاوم الغرائز ويمنع مطالبها الطبيعية ، بخلاف الحيوان ، فإنه لايتمتع بهذه القوة .

(٣) ولربما نرى — وهذا يحدث كثيراً — أن الإنسان لايبالي بمقتضيات الجبلة (الغرائز) في سبيل العمل بمبادئ الدين والأخلاق ، فلو كانت الجبلات الحيوانية فاعلة في حياته كلها لما أمكن ذلك ، بل إنه يمكننا — حينما نسلم بقوة جوهرية سوى الغرائز — أن نتعرف على هذه القوة المختصة ، القوة التي تختص بالإنسان والتي لاتوجد في الحيوان .

(٤) وهناك حياة روحية لها تجاربها ومشاهداتها وهي غير الحياة المادية ، فلو سلمنا بوجود ميول مماثلة للحيوان والإنسان ، وبصرف النظر عن الفرق الخلقي بين عواطفهما — فإنه لاسبيل إلى القول بوجود هذه الحياة عند الحيوان مع أنها مسلم بها .

(٥) وحسب نظرية الجبلة فكل ما يحصله الإنسان إنما يحصله بالوراثة والتقاليد ، ولكن السؤال هو من أين يجد مقياساً للرضا والكراهية بحيث يحب بعض الأفعال ويكره البعض الآخر ويقبل بعض العادات ويترك البعض الآخر ؟

ومن هنا يجب أن نسلم بقوة سوى الجبلات تكون ضامنة للخصائص الإنسانية وتمنح – كذلك – مقياساً للرضا والسخط ولا وجود لها لدى الحيوان .

(٦) لقد وصف شعور (الذات فى الإنسان) بوصف يتعلق أساساً بخالق الكون ، وكلما ترقى الإنسان وتطور تنعكس الصفات الإلهية على أخلاقه فيصبح ربانيا ويصدق عليه أنه ممن « تخلقوا بأخلاق الله » ومن الواضح أن هذه الصفات لاتتعلق بالحيوان ، وكذلك من المستحيل أن تبرز فى الحيوان نتيجة للتطور ... !!

(٧) ومن المعروف أنه لايقوم نظام حياة الإنسان على المادة أو القوة فقط ، بل يدل النظر والتفكير على أن هناك طاقة شاعرة سوى الجبلة ، وهى توجد فى الإنسان على وجه الخلقة ، وهى تتحد مع الجبلة وتحافظ على التوازن وهذه الطاقة الشاعرة هى الفطرة الصالحة السليمة (القوة العلوية) فلو صرف النظر عن الفطرة لحظة وسلم بالحكم المطلق للجبلة فلن يبقى هناك أى فرق بين أعمال الإنسان والحيوان .

(٨) وفى حياة الإنسان أوتار خفية لايستطيع العقل القيام بدورها فضلا عن الوجدان والحواس ، كما ثبت بالتجارب والمشاهدات ، ويتم توجيهها وإرشادها بالوحى الإلهى فقط ، وعليها تتوقف سعادة الإنسان وشقاؤه . ولو جعلنا الجبلات وحدها مرشدة لأعمال الإنسان وأفعاله فمن يقوم بتوجيه هذه الأوتار و الأسلاك الخفية التى بدونها تهرب الحياة من نفسها وينتهى طعم الحياة .

البحوث الحديثة وميكدوكل :

وخلاصة القول أن نظرية الجبلة و الغريزة حافلة بالعيوب والأخطاء ، وهذا يدل على أنها لم تستطع الوصول إلى الفطرة الإنسانية . ومن ثم فقد ظهرت فى شرحها وفى ثنايا التعبير عنها بعض التساؤلات التى لم يستطع (مكيدو كل) الرد عليها ،وكان من حصاد هذا كله أن(ميكدو كل) نفسه لم

يقتنع بنظرية الجبلة مع بحثه العميق فى (علم النفس) ، ولذا فإنه قال فى نهاية كتابه الشهير (أسس علم النفس) :

« لعل القراء قد شعروا فى الصفحات السابقة بأن ما كتبته قد كتبته فى أسلوب ملىء بالادعاء والغطرسة ، وكأن تعبيرى عن العمل الذهنى والصياغة الذهنية هو التعبير الصحيح الذى لايصح غيره من التعبيرات .

ولكننى أعتقد أن هذا خير تعبير وصلت إليه بعد دراسة عميقة لمدة ثلاثين سنة ، وإنى لأشعر بأن نتائجى مجرد أقيسة صالحة للعمل يحتمل أن يكون خطؤها أكثر من صحتها (١) » .

اعتراف ميكدوكل :

ومن ثم فقد اعترف (ميكدوكل) علانية بحقيقة أنه لم ينجز إلى الآن إلا عملا قليلا جداً حول عقل الإنسان ونفسه ، ثم قدم (مكدوكل) كشفاً ببعض المسائل المهمة التى لاتزال فى الخفاء ، ودون أن يزاح الستار عنها كما يعترف (مكدوكل) فإن معظم بحوث هذا الباب لاتعتبر قطعية ، ومن أمثلة هذه المسائل :

(١) ما حقيقة البناء التكوينى للذهن وما مدى سعته ؟ وهذه المسألة تنقسم قسمين كبيرين :

(أ) ماحقيقة ، بل ، وما سعة العقل المكتسب ؟ ولو كان تعبيرى عن البناء الجبلى أصح فهل تتوارث الميول الجبلية فى صورة العناصر الساذجة المفردة ؟ أو أنها تصلح للانتظام فى صورة العواطف الكبيرة المتوارثة بحيث تشترك فى جميع الأفراد الإنسانية إلى حد ما ؟ وخاصة هل هناك أهلية وصلاحية فطرية لنمو العواطف من ناحية الخلقة ؟

---

(١) اسس علم النفس ص ٦١٤ .

(ب) وهل هناك بناء فطرى للرقى العقلى سوى الغرائز ؟ ، وهل هناك نظام عصبى وصلاحية التكيف مع الأحوال الجديدة التى عبر عنها فى هذه الصفحات بالعقل وقد تسمى فى أحسن صررها بالفراسة ؟

وباستثناء استثارات الغرائز هل هناك دافع خلقى يؤدى إلى الرقى العقلى على أساس وسيلة عامة مؤثرة ؟ وهل هناك شىء فى ذخائرنا الخلقية يجيز الاقتناع بالعقيدة القديمة حول التصورات الخلقية ؟

وهل هناك ميول خلقية سوى الميول التى تدخل فى تركيب الغرائز وتكوينها ؟

وبعبارة أخرى ما البناء التكوينى لهذه الأهليات الخلقية الخاصة التى يختلف فيها واحد عن الآخر وهى تبدو متوارثة من أسرة واحدة وتظهر فى أفراد مختلفين فى الأجيال اللاحقة (١) ؟

وهكذا ينتهى (ميكدوكل) إلى أن يقول عن التطور :

« ترى هل تكمن فى المستقبل مدارج عليا أخرى للتطور ؟

من يعلم ذلك ؟

العلاقة بين الروح والجسد :

وأهم من هذا كله وأدق منه مسألة العلاقة بين الفكر والمادة ، وبين الروح والجسم ، ولم يتم فيها حتى الآن بحث نافع ، أو كما يقول مكدوكل :

إنه فيما يتعلق بالصلة بين الفرد والمادة أو الروح والجسم ، فلقد حاولت مجرد أن توجد فى الطالب قدرة على النظر فى أصل المسألة بقلب مفتوح ، ويبدو أننى لم أوفق كثيراً ، مع أن هذا ضرورى لعلم النفس وللفلسفة كليهما (٢) .

---

(١) أسس علم النفس ص ٦١٥ .

(٢) نفس المصدر .

حل مسالة الارتقاء :

والحقيقة أن الحاجة للوصول إلى كنه الفطرة الإنسانية ضرورية للنظر فى هذه المسألة ، فلو تم الوصول إليها فسوف تحل كثير من المشكلات المعقدة بنفسها وسوف تنفتح طرق واسعة للكثيرين ،حتى أن مسألة التطور المعقدة سوف تحل تلقائياً حين يقطع الإنسان مراحل التطور الروحى ، إلى أن تتصل بخالق الروح والكون .

٣ – نظرية الجنس

تنسب هذه النظرية الشهيرة إلى خبير علم النفس المعروف (فرويد) (Sigmund Freud) المولود فى ١٨٥٦ م (١)

ويحسن قبل شرح هذه النظرية الإلمام ببعض الأصول التوضيحية وببعض المسلمات التى آمن بها فرويد حتى يسهل علينا تحديد مكانة النظرية .

أصول النظرية :

تقوم النظرية على عدد من المبادئ أهمها :

إن المنع من الشيء يورث الرغبة فيه، فإن الناس لو لم يريدوا فعل شيء لما منع منه القانون أو العادات .

---

(١) فرويد ، سيجموند : (١٨٥٦ – ١٩٣٩) طبيب نمساوى ، مؤسس مدرسة التحليل النفسى ٠ اشترك مع جوزيف بروير فى علاج الهستيريا بالنوام ، مفسرا اغراضها بانها تعبيرات عضوية عن صدمات مكبوتة ، وصراعات نفسية لا شعورية ترجع الى الطفولة اثارت نظريته فى تطور الغريزة الجنسية منذ الطفولة الاولى ، وفى عقدة اوديب ، سخط اطباء الامراض العقلية وعدد ممن كانوا قد انضموا الى حركته ، منهم ادلر ويونج ٠ من اهم كتبه : « تفسير الأحلام » و « ثلاث رسائل فى نظرية الجنس » و « مدخل الى التحليل النفسى » و « ما فوق مبدا اللذة » و « مقدمة فى التحليل النفسى » و « حياتى » و « التحليل النفسى » و « الذات والغرائز » و « القلق » و « معالم التحليل النفسى » وكلها مترجمة الى العربية ٠ (المراجع) ٠

وعلى هذا فكلما منع الشيء بشدة كلما وجد الإقبال عليه بنفس الدرجة ، فقتل الوالد وتزوج المحرمات وممارسة الفعل الجنسى مع الأقارب جرائم منفرة ، فليكن الإقبال عليها شديداً بحيث يحتاج المجتمع لمنعها إلى ذم وعقاب شديدين .

(٢) الشيء الذى يخاف منه هو الذى يرغب فيه فى الأغلب ، والخوف فى الحقيقة يكون ستاراً للرغبة ، أى أن الخوف الذى يوجد فى الحياة يكون أمراً غريباً فى الأغلب ، ويشك فرويد فى أن هذا الخوف ستار للرغبات التى لاتقبل التحقيق .

(٣) القلق المتزايد عن سلامة شخص يمكن أن يكون ستاراً للرغبة فى إلحاق الضرر بدون شعور ، وهذا القلق إنما هو ستار لتلك الرغبة (١) .

مسلمات فرويد :

هناك مسلمات لفرويد قام عليها فكره ، وهى :

(١) البحث عن الأسباب أى الرغبات التى تقتضينا البحث فى ذكريات الماضى .

(٢) إن الماضى هو المسئول عن الحال .

(٣) كل سلوك ينبنى على عامل (الرغبة) أى على جميع أفعال الإنسان الإرادية وغيرها والمفاجئة أو الصدفية . إنما ينتج عن العوامل والبواعث الدفينة ، وهو ترجمة للرغبات .

وهكذا يكون كل فعل وحركة ، تعبيراً عمليا عن الرغبات النفسية ، وكذلك فإن كل فعل هو تحقيق للرغبة ، سواء كانت الرغبة غير مباشرة أو مباشرة .

---

(١) الجديد فى علم النفس ص ١٤٩ .

(٤) الحب فى معناه الحقيقى يكون جنسيا ، وليس هناك حب آخر (١) .

أركان النظرية :

إن نظرية الجنس إنما هى بحث عن الأمور التى تقع فى الأعماق غير الشعورية لحياة الفرد ، ويتم الوصول إليها باتباع طرق التحليل النفسى .

وقد اعتبرت الأخطاء والفكاهات والأحلام وخاصة صور الاختلال العصبى أساساً لتطبيق هذه النظرية ، أى أن فرويد وجد فى تحليل هذه الأمور عقدا ورغبات معظمها تعبير عن الجنس ، وخاصة أنه رأى فى جميع صور الاختلال العصبى فساداً جنسياً مبنياً على كبت الغريزة الجنسية .

ويبدأ الاختلال العصبى عند فرويد (بالجنس الطفلى) المكبوت ، ولكنه لا يقتصر على الأفراد الذين أصابتهم علة عصبية فى وقت ما ، بل إنه يوجد فى كل فرد كجزء مهم ومطلوب للحياة ، ويكون هذا الاختلال باعثاً على العمل الذى لا يختص بالجنس عند النظرة الأولى . وهكذا فإن مصطلحات : (الجنس) ، (الطفلى) ، (المكبوت) هى الأركان الثلاثة للتحليل النفسى عند فرويد (٢) .

تقسيم النفس الإنسانية :

تقسم نظرية الجنس الفرويدية النفس الإنسانية إلى شعور ولا شعور .

(١) فالشعور هو جزء النفس الإنسانية الذى يقدر به الإنسان على التفكير والفهم والتصرف إلى غير ذلك .

(٢) واللاشعور هو الجزء الذى يكون تحت الشعور ويكون منبعاً لجميع عواطف الإنسان وأفكاره وغيرها .

---

(١) نفس المصدر ص ٥٠ ــ ٥٦ .
(٢) نفس المصدر ص ١٤٠ .

وهذا الجزء أكبر من الشعور بكثير ، والعلاقة بينهما مثل العلاقة بين الزبد والبحر ، أى أن الشعور زبد واللاشعور بحر .

وتكون فى هذا اللاشعور قوة جنسية شديدة دائما ، وهى التى تجعل الإنسان قلقاً مضطرباً ، والإنسان يريد تهدئته بالشعور ، ولكن الشعور لايستطيع تحقيق هذه الرغبات بسبب عوائق عديدة يحس الإنسان بها ، ومن هنا يلحق الإنسان قلق دائم ويصاب بالجنون أو الأمراض النفسية الأخرى .

وهذه العوائق هى الدين والقانون والأخلاق وغيرها من الموانع المصطنعة والحيل الاجتماعية الخادعة التى تعمل على تحقيق (السكون الجنسى) ولاتسمح للأهواء أن تتحقق وتتم .

اللاشعور والجنس :

لاتنشأ الرغبات الجنسية للاشعور عند فرويد أيام الشباب فحسب ، بل تصحب كل إنسان منذ نشأته ، مع تغير أشكال ظهورها فى كل عصر ، فمنها مص الطفل لإبهامه ، وعضه للأشياء ووضعه إياها فى الفم ، وحبه للدلك والربت على ظهره ، فكل هذه مظاهر لإشباع الرغبات الجنسية .

وكذلك فإن البول والبراز والنظر إلى الأشياء أو صرف الوجه عنها ، وتحطيمه للأشياء أو رميه إياها ، وتحريكه لليد والرجل أو غير ذلك من الأفعال التى يستلذها الطفل ... كلها أفعال جنسية لا شعورية .

وحينما يكبر المولود تحب البنت أباها أكثر من أمها ، ويحب الولد أمه أكثر من أبيه ، وهذا الحب أيضاً جنسى ، وكرد فعل لذلك ينشأ فى البنت اتجاه ضد الأم ، وفى الولد اتجاه ضد الأب ، وهذا الاتجاه أيضاً نوع من الجنس .

وخلاصة القول إن فرويد يدخل كل عمل جميل مثل علاقات الزمالة والصداقة ، وحب الموسيقى أو الفن أو العلم أو الصناعة ضمن اللذة الجنسية

حتى إن ذكر أي شيء بكلمات الحب ولو في المحادثات العامة أو في مجال أداء العمل إنما يتصل عنده بالرغبات الجنسية ، وهكذا يخضع فرويد لتأثير الغرائز والرغبات الجنسية جميع أنواع الرغبات الشعورية واللا شعورية(١) .

مكانة اللاشعور : ويحتل اللا شعور المكانة الرئيسية في نظرية الجنس الفرويدية ، والشعور في الأصل جزء من اللا شعور ، وعلى هذا تسمي هذه النظرية أصلاً باسم (اللا شعور) وفيما يلي آراء فرويد حول اللاشعور ... يقول فرويد :

« إن اللا شعور هو قدر للعواطف التي تغلي ، وليس فيه نظام ولا إرادة مفهومة مدبرة ، بل هو مجرد عاطفة يتم بها تحقيق الرغبات الجنسية للمتعة ، واللا شعور لايحوى قوانين منطقية بل التعبير عن الأضداد هو عمل اللاشعور »

والأهواء المتضادة توجد فيه دائما دون أن يقضى أحدها على الآخر ، ولا يوجد في اللا شعور شيء يشبه النفي ، ونحن نحار حينا نرى أن دعوى الفلاسفة بأن الوقت والمسافة عناصر لازمة لأفعالنا فالمسافة والوقت مرتبكان في عالم اللا شعور .

ولا يوجد في اللا شعور شيء يتعلق بتصور الوقت ، وليس في اللا شعور علامة على مضى الوقت ، وهذه حقيقة محيرة لم يلتفت الفلاسفة تماما لفهم معناها إلى الآن ، وهي أن مضى الوقت لايحدث تغيراً في عمل اللاشعور . وكذلك لاتفنى ولا تنقضى رغبات العمل في اللا شعور ، والتأثرات الذهنية التي حبست في اللا شعور تأثرات غير فانية في اللا شعور من جميع النواحي وتبقى محفوظة فيه دائماً كأنها وجدت أمس (٢) .

---

(١) القرآن والعلم الحديث (نظرية فرويد) والجديد في علم النفس ص ٥٦ ـ ٥٨ .

(٢) القرآن والعلم الحديث ص ١٦ .

الإنسان وهذه النظرية :

ومن الواضح أنه إذا سلم بأن اللا شعور هو قدر يغلى دائما بالغريزة الجنسية ، وإذا اعترف بأن جميع الأنشطة تخضع لعواطف الحب الجنسى والأهواء؛ فما هى القوة التى تبقى فى الشخصية الإنسانية ، تلك التى يكون نشاطها أرفع من المقتضيات الحيوانية ومن الأهواء ، ويصان الإنسان فيها عن كونه حيوانا مقهوراً بالشهوات ؟

وفى ضوء هذه النظرية فإن الإنسان لايصبح عبداً للمقتضيات الحيوانية المخجلة فحسب بل يصير (قبيحا) بأصل الفطرة وشقيا بطبيعة تكوينه . فإن فرويد لم يسلم بأن فى الشخصية الإنسانية قوة جوهرية سوى اللا شعور تكون مقتضياتها أرفع وأزكى ، ويستطيع الإنسان بمساعدتها التغلب على الغرائز الجنسية المخجلة .

مافوق الشعور :

ويذكر (فرويد) فى نظريته « ما فوق الشعور » بأن الطفل حينما يكبر وتقل فيه عاطفة الحب مع الوالدين يستعيض عن الحب الجنسى بالقيم والدين والأخلاق فكأن ما فوق الشعور هو الوصف الذى يقدم للطفل البديل للحب وهى القيم التى يجب أن يحبها خضوعاً للمجتمع ، وهو بهذا يشعر بضغط الدين والأخلاق والضمير وغيرها من الضوابط .

وهكذا يقدم فرويد « نظرية الإيجو » (Eago) التى تهدد اللاشعور بقوة واستمرار وتمنعه من تحقيق الرغبات الجنسية ، وتدعوه إلى إعمال الفكر واليقظة .

ولكن فرويد مع ذلك يجعل اللا شعور نفسه منبعاً وباعثاً لجميع أعمال الإنسان وأفعاله ، ويجعل هذا كله فيضاً من اللا شعور أو استمداداً من قوته .

وعلى هذا تكون فعالية القيم والدين والفكر أضعف من اللاشعور ، بحيث أنها لاتستطيع الحصول على مكانة قوية جوهرية فاعلة .

مكانة الدين والأخلاق والعلم والفن :

وفيما يلي نقدم بعض مسلمات هذه النظرية حول الدين والأخلاق والعلم والفن ... يقول فرويد .

(١) ليس لنشاط الإنسان الأعلى من العلم والفن والفلسفة والأخلاق وضع ثابت مستقل ، بل إن هذا النشاط وسيلة لتهدئة غرائز الإنسان الجنسية التى اضطر لتركها دون إشباع ، فهى لاتهدأ . فالإنسان الذى لم يستطع أن يسكن الفطرة فى صورتها الجنسية الأصلية قد اضطر لإبرازها فى صورة العلم والصناعة والفلسفة والأخلاق .

(٢) وحقيقة الدين ليست إلا أن الطفل حينما يكبر ويفهم أن أبويه قد أصبحا يقصران فى صيانته وتربيته فإنه يرغب فى أب سماوى ، ثم إن هذا الأب يصدر الأحكام والتوجيهات مكان الأب الأصلى أو أن حالة الأمن والسكون لاتتحقق فى الحياة العامة إلا إذا ضحى الإنسان بأهوائه للآخرين ، وهذه التضحية لاتوجد إلا إذا كان هناك عوض عنه لدي الإنسان ، وبما أنه ليس هناك سبيل للعوض الحقيقى فى الدنيا ، فاقترح الإنسان العوض فى صورة اسم الله المتخيل ، ثم إن هذا العوض تطور إلى الصورة الحالية للدين .

٣ ــ ونشأة الأخلاق عند فرويد ــ فى أصلها ــ إنما هى عرقلة مصطنعة خلقها المجتمع حتى لا تضره أهواء الإنسان بعد أنفلاتها من القيود .

٤ ــ والضمير هو الرجل الشرطى للمجتمع ومهمته مراقبة شعور الإنسان .

٥ ــ وتمييز الخير عن الشر مجرد فرضية لاتمت إلى الحقيقة بصلة (١) :

---

(١) القرآن والعلم الحديث ص ١٩ .

ولا يخفى مصير القيم الإنسانية فضلا عن مشاعر الكرامة والدين والأخلاق وغيرها بعد شيوع مثل هذه النظرية وتعليمها ودراستها .

نظرية الجنس والجنون :

والأصل أن هذه النظرية لم تخرج من علم النفس المدرسى ، بل نشأت من معالجة الأطباء للمرضى بطريقة التحليل النفسى . وهى فى معناها الأوسع وثيقة الصلة بظاهرة الجنون ،وحينا يستعمل لها اسم علم النفس الاستبطانى(١)

ثم إن فرويد كرر مراراً أن نظريته لاتدعى إحاطة كاملة بالحياة الذهنية بل إنها تحاول خاصة شرح الناحية التى تركت مظلمة فى النظريات الأخرى(٢)

أخطاء نظرية فرويد :

لقد بين خبراء علم النفس النقائص الكثيرة لنظرية الجنس، حتى أنهم أثبتوا بتحليل نفسية فرويد أنه نفسه كان عبداً للغرائز الجنسية ولذا كان ينظر إلى كل شيء بمرآة الجنس .

ولو سلم بأن اللا شعور (عاطفة) كلها من نوع الجنس فإنه يلزم أن يحصل للإنسان الرى والشبع عند انطلاق الغرائز الجنسية من قيودها بطريقة شيوعية ولكن المشاهدة تدل على أن الحرية الجنسية تجعل الإنسان قلقاً مضطرباً أكثر ، بل معرضاً للجنون .

وأكبر أسباب ذلك أن سيطرة الأهواء تهزم قيم الإنسان الفطرية وينشأ فراغ فى الحياة لا يمكن ملؤه بالجنس فيشعر الإنسان بظمأ وضياع .

والأمر ليس كما ذكر فرويد سابقاً فإن العلم والفن والأخلاق ونظريات الفلسفة ليست حسب نظرية فرويد تعبيراً عن رغبات الإنسان الفطرية ومتطلباته الأصلية ، بل هى وسيلة لتهدئة الرغبات الجنسية التى تركت .

---

(١) الجديد فى علم النفس ١٤٠ .
(٢) نفس المصدر ص ١٤٨ .

والسؤال الذى يمكن أن يدحض نظرية فرويد فى هذا المقام : ما سبب تحول الرغبات إلى صورة العمل والفن والدين- مثلا - ؟ ثم إن هذه الرغبات لماذا تختار صورة مضادة بعد التحول ؟ ولماذا لايكرن هذا التحول فى صورة قريبة للرغبات الأصلية أو مناسبة لها ؟

اعتراف فرويد بالحقيقة :

ويعترف فرويد بحقيقة أن الاشتغال بالعمل والفن والأخلاق ربما يورث فرحة وطمأنينة لاتحصل بتحقق الرغبات الأصلية، مع أن هذه الأشكال المتغيرة تظهر غالبا فى صورة القيم الإنسانية مثل الصدق والإيثار ولاتكون لها أية صلة بالجنس ولا يمكن الرد على هذا إلا بأن الإنسان توجد فيه قوة جوهرية لها مقتضياتها ومتطلباتها ، وأنه تحصل السعادة والطمأنينة بالقدر الذى تحققه أعمال الإنسان وأفعاله لإشباعها ، وهذه العلوم والفنون والأخلاق هى — فى الأصل — الطريق الوحيد لإشباع هذه القوة ، وليست الصورة المتخيلة للرغبات الجنسية .

أما الراحة والطمأنينة العارضة للإنسان بسبب التحقيق الحر للرغبات فمثلها مثل من عضته الحية فلا يشعر بمرارة السموم ، بل ربما تغلبه لحظات إسترخاء بسبب السم الغالب لكن النتيجة — بعد ذلك — معروفة .

والفرق واضح بين هذا السكون وبين سكون العلم والفن ، فالأول يبقى إلى الوقت الذى يصبح السم مؤثراً فيه ، ولكن الثانى مستقل ثابت غير معلق على سبب عارض .

هذه النظرية والحياة :

والواقع أن نظرية فرويد لا تنتظم حياة الإنسان بكاملها، ولا تجرى فى طبقات الحياة المختلفة وأحوالها العامة ، ولكن الفوضى الجنسية لعصر الإلحاد « وملوك الطوائف الفكرية » قد جعلت من هذه النظرية العرجاء محور علم النفس الحديث بحيث أن مخالفتها تضر بالصحة ، وتسبب الأمراض النفسية المختلفة .

سكون النفس عند فرويد :

ويعترف فرويد نفسه عن تصوره لبعض مدارج الحياة الإنسانية بأن سكون النفس يمكن أن يحصل بالأشياء الأخرى غير الرغبات الجنسية ، وهذه المدارج تحفظ الإنسان من الأمراض النفسية ، فمثلا يرى فرويد أن طرق عبادة الصوفية والزهاد يحدث تغيراً في الأجزاء المختلفة للنفس الإنسانية ، وفي ذلك يقول :

من المحتمل أن بعض الطرق الصوفية تغير العلاقات العادية لمدارج النفس الإنسانية المختلفة ، وذلك مثل اشتمالها على قوة الإدراك لبعض أعماق اللاشعور التي تكون خارجة عن قوتها .

وهنا يرد السؤال حول ما إذا كانت هذه (الفرق) قادرة على إرشادنا إلى الحقائق الأبدية التي تظهر بها جميع التصرفات ؟ وهذا أمر مشكوك فيه ، ولكن ينبغي أن نسلم بأننا أيضاً قد أخترنا هذه الطريقة نفسها في محاولتنا للعلاج على أساس التحليل النفسي ، فإن هذه الطريقة تهدف إلى تقوية (الأنا) وفصله عما فوق الشعور وتوسيع وجهة نظره وتوسيع نطاقه حتى يحتوي على أجزاء أكثر للاشعور وحتى يصل الشعور إلى حيث كان اللاشعور أولا(١)»

علم النفس المدرسي والتحليل النفسي :

وباعتراف فرويد نفسه يتضح لنا أن العمل الذي أنجزه على أساس التحليل النفسي قد أنجزه الصوفية بطريقة العبادة والرياضة . وعلى هذا الأساس فأية أهمية تبقى لطرق أو لوسائل التحليل النفسي حتى يستفيد منها علم النفس

---

(١) القرآن والعلم الحديث ص ٣١٨ .

المدرسي ؟ في حين أن كثيراً من نواحي الحياة تبقى مجهولة كما يبقى كثير من أسرارها خفية ؟

وهكذا ، فإنه إذا ثبت أن الطرق الصوفية قد نجحت عن طريق العبادة والرياضة في إشباع عاطفة اللاشعور دون حاجة للرغبات الجنسية فلماذا لايفيدنا هذا أن عبادة الله عن طريق الشعائر يمكن أن تشبع هذه العاطفة وتوفر وسائل تهدئتها ؟ في حين أن التسليم بالحب الجنسي والرغبات الجنسية يؤدي إلى القلق بدل السكون وإلى تحول الإنسانية إلى الحيوانية وليس إلى الارتقاء .

فطرة فرويد والحقائق الأبدية :

إن سؤال فرويد عما إذا كانت « هذه الطريقة ترشدنا إلى الحقائق الأبدية التي تظهر بها جميع التصرفات ؟ » هو صوت لتلك الفطرة التي أودعها الله في الإنسان منذ أول يومه ، والتي بها ميز خلق الإنسان عن خلق الحيوان .

والفطرة في شخصية الإنسان عميقة واسعة بحيث لاتتغلب عليها قوة معارضة ، ولايغيرها منعطف من منعطفات الحياة ، نعم قد تغلب المؤثرات المضادة فيخفت ضوء الفطرة ولكنه يعود فيضيء إذا وجد فرصة لذلك .

نقد ميكدوكل : وبسبب هذه النقائص الموجودة في نظرية الغريزة الجنسية لم يتمكن فرويد من الفوز بالموافقة عليها من خبراء علم النفس في عصره ، بل إنهم ردوا عليها بصراحة ، فقد قدم ميكدوكل نموذجاً لتكذيب آراء فرويد في كتابه (أسس علم النفس) حين يتحدث عن العطف على الكلب وقال : إن كلباً يرتعد في البرد ولايحميه أحد في ظلام الليل ، فإذا مر به إنسان فرثى لحالته المؤلمة وأخذه رفقاً به إلى بيته وحماه وحفظه وكفله بكل

طريقة ودفنه بعد الموت ، فهل العطف والحب الخاص بهذا الكلب حب جنسي وشهوة ؟ ثم يقول ميكدوكل :

« إنى مثلت بالكلب لأنه يرد على عقيدة فرويد بأن كل حب يتضمن بالضرورة الجنس (١) .

رد أيدلر :

وهكذا لم يطمئن إلى هذه النظرية تلميذ فرويد الشهير (الفرويد أيدلر) المولود فى سنة ١٨٧٠ م ، وجعل يعارضها دائما حتى هجر من أجلها أستاذه ، وقد اخترع (أيدلر) مكان نظرية (فرويد) اللا شعورية غير المقنعة نظرية حب التفوق وقال : إن نوع عاطفة اللا شعور ليس جنساً بل إنه حب تفوق ، وقد سمي (أيدلر) هذا المذهب المعارض بـ « النفسيات المنفردة » (٢) .

نقد (سى جى يانك) :

وهكذا لم يطمئن إلى هذه النظرية تلميذ فرويد الرشيد (سى جى يانك) المولود فى ١٨٧٥ م والذى كان معه على علاقة قوية دائما إنه كان يرى آراء فرويد ثمينة وثورية ، ولكنه وصفها بأنها ذات وجه واحد وغير ناضجة وحاول أن يقدم عوضاً عنها نظرية أكمل منها واختار لها اسم « النفسيات التحليلية » (٣) .

---

(١) أسس علم النفس ص ٥٧٥ .
(٢) الجديد فى علم النفس ص ١٧٠ .
(٣) نفس المصدر ص ١٧٦ .

ولسنا بصدد البحث عن مدى صحة هذه النظريات ، بل ما نريد أن ندل عليه فقط هو أن فرويد لم يستطع أن يقنع تلاميذه وأقرب الناس إليه بسبب نقص نظريته وضعفها .

وإلى جانب هذا فإن نظرية الجنس لم تنتشر في عصر الإلحاد بسبب أن العالم الجديد قد اطلع بها على أسرار الإنسان الخفية ، أو لأن هذه النظرية كانت ملائمة للفطرة الإنسانية ، بل سبب ذيوعها أن سبل التحلل فيها كانت أوسع ، وقد أعطت فرصة كبيرة لتحقيق الفوضى الحيوانية والتحرر الغرائزى والتفلت من تعاليم الدين وقيود الشرف والأخلاق .

٤ ــ نظرية الاشتراكية

تنسب هذه النظرية إلى كارل ماركس Karl Marx (١٨١٨ — ١٨٨٣ م) (١).

---

(١) ماركس ، كارل : (١٨١٨ ــ ١٨٨٣) ، فيلسوف الشيوعية المعاصرة • من اصل يهودى المانى درس القانون في جامعة بينا بالمانيا ، ثم انصرف الى الاقتصاد والفلسفة الاجتماعية أضطهد فى ألمانيا بسبب نشاطه الثورى فانتقل منها الى باريس حيث التقى بفردريك انجلز ، وتعاونا معا على اصدار الوثيقة الشيوعية الأولى ، المعروفة باسم (المنشور الشيوعى) (١٨٤٨) أصدر الجزء الأول من كتابه (راس المال) ١٨٦٧ ، واخرج صديقه انجلز بعد وفاته الجزئين الثانى والثالث • ويعتبر (رأس المال) انجيل الشيوعية المعاصرة كذلك اسس ماركس (١٨٦٤) المؤتمر الاشتراكى العالمى • (المراجع)

استعراض الأحوال :

لقد تم تدوين نظرية الاشتراكية وتقعيدها فى مرحلة متأخرة ، ولكن سير الأحوال الطبيعى كان يشير إلى أن ثمة مستقبلا معيناً ، ينتظر البشرية ، فقد كانت الحركات تظهر حينا بعد آخر وتبدو وكأنها تفشل فى الظاهر ، مع أنها كانت تعبر عن تطور الحياة الداخلية للمجتمع ، من جانب — ومن ناحية أخرى كانت تمهد السبل للثورة .

فلقد بدأت فى أنجلترا سنة ١٨٣٤ م قبل الاشتراكية حركة عمالية ضد الرأسمالية ، وقد بلغ عدد أعضائها فى عدة أسابيع خمسة ملايين عضواً

وكانت هذه الحركة تهدف إلى ما تعبر عنه الفقرة التالية :

« إننا لانهدف إلى أن نجادل فى موضوع زيادة الأجور ، بل إننا نريد تغيير نظام المجتمع بحيث تسنح الفرصة أمام كل فرد لتطوير كل ناحية إيجابية فى حياته » (١) .

ولم تقم هذه الحركة على مبدأ الهدم والتدمير بل كانت الجهود فيها قائمة على العمل والأخلاق ، متجهة إلى إقامة المستعمرات على المبادئ الاشتراكية ثم توجيه الرأسماليين إلى محاسن الاشتراكية ، ولكن سيطرة النظام الرأسمالى كانت قد أفسدت الأذهان إلى أن صارت المواعظ والتوجيهات لاجدوى منها بل كانت الحاجة ماسة إلى جهود ثورية مستقلة ، فمع بذل الجهد خلال مدة طويلة لم يدخل من أصحاب الأعمال والمصالح رجل واحد فى هذه الحركة ،

(١) راس المال ص ٩ .

وبعد ستة شهورفقط فصل جميع العمال الذين كانوا أعضاء فى الحركة من مصانعهم .

حركة جارتست :

وبهذا العمل العدوانى سيطر اليأس على زعماء الحركة ، وأخيراً أنتهت الحركة نفسها .

ثم بدأت بعد ذلك حركة أخرى باسم (جارتست) وكانت أرقى من الأولى كما يبدو من المقتطفات التالية :

« يدل تاريخ التطور الإنسانى على أن الطبقة الغنية فى العالم حاولت دائما أن لاتقوم الطبقة الفقيرة ، وذلك أن ثروة الغنى لاتقوم إلا على فقر الفقراء، ومهما حاولت الطبقة الغنية التمسك بالأخلاق فإنها لاتستطيع أن تخفى حقيقة أن ذلك الغنى ينهب الفقير باستمرار » .

« والسر الكامن فى جميع أوهام العالم هو أن الغنىّ يريد من خلال نشره الأوهام أن يبقى الفقير فقيراً ، والخطيئة الأساسية للإنسانية هى رغبة الإنسان فى أن ينتفع بكد الآخرين ، وكل الخطايا تنشأ من هذه الخطيئة ، وهذه الخطيئة نشرت النفاق والفساد فى العالم ، وجعلت التاريخ الإنسانى عبارة عن قصة من الظلم والجور » .

وكان زعماء هذه الحركة يرون أن المسئول عن نكبة الطبقة الفقيرة هو طريقة الانتاج الرأسمالى

« إننا لانحمل الرأسمالى — بمفرده — مسئولية الدمار الاجتماعى الحالى ، فإن ذلك ظلم بل إن هذا الدمار نتيجة للنظام الاجتماعى الفاسد كله ، ولانحمل

رأسمالى واحد تبعة العمل فى هذا النظام ، بل إن الرأسمالى أيضاً قد يكون مقهوراً ومضطراً فى هذا النظام » .

وقد علل زعماء هذه الحركة الحروب المستمرة بين فرنسا وإنجلترا طوال ١٨ سنة بما يأتى :

« لقد وقعت هذه الحرب بسبب أنها كانت نافعة للرأسماليين فى إنجلترا ، فإن جماعتنا الرأسمالية كانت تريد إخماد الثورة وإيجاد دسوق لتجارتها » (١) .

سبب فشل هذه الحركات :

ويرى المؤرخون أن الحركة الأولى قد فشلت بسبب أنه لم يوجد لديها برنامج واضح ، وفشلت الحركة الثانية بسبب أنه لم يتم تحليل الرأسمالى الغنىّ وفق مقتضيات العصر الراهن وإن كان لديها برنامج .

ولكن الخبراء يرون أن السبب الأصلى فى فشل هاتين الحركتين معا هو أنه لم تكن توجد إلى الآن فى الحياة الاجتماعية قوة التحمل ، وسعة التخطيط اللتان يحتاج إليهما فى الثورة الجديدة ، ولعله لم يوجد الظرف الذى يسع بناء الحياة الجديدة .

وكان من نتيجة هذا التطور أن (كارل ماركس) قد استعد – بعد فشل الحركتين – لتنظيم حركته الاشتراكية وتدوين برنامجها وفلسفتها . وقد استفاد فى ذلك من جميع العوامل والمحركات التى كانت عوائق فى هذا السبيل حتى الآن .

---

(١) رأس المال ص ١٠ ، ١١ .

صول لاختبار نظرية :

وللوصول إلى عمق نظرية ما يجب دراستها من ثلاث نواح :

١ – بأى نظرة ينظر فيها إلى الإنسان والكون ؟

٢ – هل تتعلق بشعبة من شعب الحياة أو تحيط بالحياة كلها ؟

٣ – ما نوعية آثارها فى الحياة ؟

وهذه النواحى الثلاث هى أصول ثلاثة لاختبار أية نظرية ولتحديد مكانتها فى صلاح المجتمع وسعادته .

وحينما يتم اختبار الاشتراكية بهذه الأصول تتضح حقيقة أن هذه النظرية أشمل من نظريات عصر الإلحاد السابقة الذكر ، وأنها قد تشكلت فى صورة عملية ووصلت (باللادينية) إلى أقصى مراحلها ، كما يبدو من شرح (كارل ماركس) وغيره من زعماء الاشتراكية .

شرح الفلسفة الأشتراكية :

لقد بين (كارل ماركس) الفلسفة الاشتراكية فى العبارات التالية :

« إن التصور المركزى لجميع ما قمت به من البحث والنظر الذى استنتجت منه جميع النتائج هو أن أفراد جماعة ما يضطرون لإقامة علاقات اقتصادية معينة فيما بينهم لقضاء حوائجهم الاقتصادية ، ولا يتوقف ظهور هذه هذه العلاقات على رغباتهم ورضاهم ، بل على الوسائل المادية الطبيعية التى توجد فى وقت لكسب المعاش . ومجموع هذه العلاقات يسمى النظام الاقتصادى للجماعة . وهذا النظامهو الأساس الأصلى الذى يقوم عليه بناء

السياسة والقانون كله ، وهو الذى يكون سببا لإنشاء تصورات اجتماعية معينة ، فكأن طريقة إنشاء الحوائج المادية تؤثر فى حياة الإنسان الاجتماعية والسياسية والروحية كلها ، وليست نظريات الإنسان وتصوراته هى التى تحدد حياته المادية ، بل هى حياة الناس المادية التى تحدد تصوراتهم ونظرياتهم وبعد مدة تصل وسائل تحقيق الحوائج — بالتطور — إلى مرحلة تزاحم فيها مع العلاقات الاقتصادية الموجودة للأفراد أو مع علاقات الملكية التى كانت تعمل فيها من قبل .

وهذه العلاقات حتى وإن شكلت صورة خاصة لنمو وسائل الإنتاج فإنها — مع ذلك — تكون معوقة فى نموها وتطورها .

وفى مثل هذه الحالة يبدأ عصر الثورة الاجتماعية ، وبمجرد تغير الأسس الاقتصادية يتغير ما عليها من البنيان الدينى والخلقى والروحى والسياسى والقانونى والنظريات والتصورات العلمية بتدرج أو مرة واحدة . وبالنظر فى هذا التغير ينبغى أن نفرق بين التغير المادى الذى يظهر فى الأحوال الاقتصادية الضرورية لتحقيق حوائج الحياة (والذى يسهل الشعور به مثل الشعور بعمل القوانين الطبيعية) وبين التغير الذى يحدث فى التصورات والنظريات القانونية والسياسية والدينية والفنية والعلمية ، والذى لا يشعر به الناس إلا عن طريق الصراع ولا يصلون به إلى النهاية إلا بجهودهم ، وكما أننا لا نأخذ فكرة سليمة عن شخصية فرد بالرأى الذى يراه هو عن نفسه ، فكذلك لا نستطيع أن نعرف ماهية عصر يقع فيه هذا التغير الاجتماعى معرفة صحيحة اعتماداً على تصوراته ونظرياته .

وينبغى أن نبحث عن سبب هذه التصورات والنظريات فى التضاد

الداخلى للحياة المادية، أى فى الصراع الذى يظهر بين وسائل الانتاج الجماعية لإنشاء حوائج الحياة وبين العلاقات الاقتصادية التى تنتج حوائج الحياة (١) .

توضيح اينجلز :

ويبدو من هذه العبارة المقتبسة أن ماركس قد حاول فى فلسفته حل المشكلات الاقتصادية فقط ، بل إنه وضع فلسفة جديدة للحياة بأسرها جعلت فيها حوائج الإنسان المادية هدفا للحياة ومحوراً للقيم الأخلاقية والروحية والعلمية . ولإيضاح أكثر نذكر كلام انجلز (٢) (١٨٢٠ — ١٨٩٥ م) الذى يقول فيه :

« إن ماركس قد كشف عن حقيقة بسيطة هى : أنه قبل أن يعتنى الإنسان بالسياسة والعلم والدين والفن يجب أن يتوفر له الأكل والشرب والسكن ، ومعنى هذا أن توفير حوائج الحياة الفورية ، وكذلك مرحلة نمو عصر أو قوم هى الأسس التى تبنى عليها النظريات القانونية والتقاليد السياسية بل حتى التصورات الدينية أيضاً ، أى أنه ينبغى أن تعرض أولا (الحاجات الاقتصادية للحياة) فى صورة السبب أو الأصل ، مع أن الواقع أن الحاجات

---

(١) القرآن والعلم الحديث (مرجع سابق) .

(٢) انجلز ، فردريك : (١٨٢٠ ــ ١٨٩٥) اشتراكى المانى اسهم مع كارل ماركس فى وضع اسس النظرية الاشتراكية الحديثة ، وفى صياغة البيان الشيوعى الشهير ١٨٤٨ . اشترك . فى تدبير الحركات الثورية فى أوربا واضطر الى الاقامة الدائمة فى انجلترا على اثر فشل ثورة ١٨٤٨ وكان من رجال الأعمال الناجحين وتمكن بذلك من مساعدة صديقه ماركس على التفرغ للبحث والدراسة ، ومن اهم كتبه (معالم الاشتراكية العلمية) ١٨٧٨ وكتاب (الدولة والملكية الخاصة) و (اصل الأسرة) ١٨٨٤ (المراجع)

الأخيرة أى (الدين والسياسة والعادات) تذكر كسبب لشرح الحاجات الأولية إلى الآن » (١) .

رد شبهة :

والذين يزعمون أن الاشتراكية مجرد حل اقتصادى لايتعارض مع القيم الإنسانية عليهم أن يدرسوا العبارة التالية لإنجلز :

« إن وحدة الكون ليست مستترة فى وجوده بل فى ماديته ، وهذا الأمر قد ثبت بالتطور الطويل التدريجى للفلسفة والطبيعيات ، والحركة هى التى يعبر بها عن وجود المادة ، ولم توجد المادة بدون حركة فى أى مكان وزمان ، ولا يمكن أن توجد الحركة بدون مادة . فلو سئلنا : ما هى حقيقة الخيال والإدراك ومن أين وجودهما ؟ فالإجابة هى أن من المعروف أنهما من إنتاج الفكر الإنسانى ، والإنسان نفسه من إنتاج عالم الفطرة وأنه نما وتطور فى بيئته ، وكذلك عرف أن ما ينتجه الفكر الإنسانى هو من إنتاج عالم الفطرة إذا تم تحليل ذلك ، وليس ذلك مخالفا لبقية علاقات عالم الفطرة ، بل إنه مطابق لعالم الفطرة تماما . والسؤال الأساسى لفلسفة عصرنا ولجميع الفلسفات ما هى العلاقة بين الفكر ووجود الروح وعالم الفطرة ، وأى منهما مقدم : الروح أو الفطرة ؟ والفلاسفة قد انقسموا إلى فرقتين كبيرتين فى الرد على هذا السؤال ، فالفلاسفة الذين يؤكدون بأن وجود الروح قبل المادة ، فيصلون بذلك إلى نتيجة أن الكون قد خُلِقَ فى شكل من الأشكال ، هم يسمون بعباد (الغيبية) . والفرقة الأخرى للفلاسفة تقول بأولية عالم الفطرة أساساً وهى تتعلق بالنظريات المختلفة لأتباع المادية . ولم يكتف ماركس بالرد على أتباع الغيبية ، التى تعلقت فى صورة من الصور بالدين ، بل إنه لم يترك الأفكار التى انتشرت كثيرا فى العصر الحاضر ، فقد ردّ على نظريات (هيوم) (٢) و (كانت) ، صور التشكيك المنهجى . وقد سمى

---

(١) نفس المصدر السابق .

(٢) هيوم سبق التعريف به (المراجع) .

ماركس مثل هذه الفلسفة الرعاية النموذجية للرجعية (IDEALISM) ، وقد عبر عن هذا بقوله : « إن المادية تُقبل على استحياء بينما يتم جحودها أمام العالم » .

أساس الفلسفة الاشتراكية :

تقوم الاشتراكية على الفلسفة المادية التى ورد ذكرها فى الفلسفةالقديمة، وقد وضحها فى العصر الحديث فيورباخ (Feuerbach) (١٨٠٤–١٨٧٢م) بصورة مستقلة .

وهذه الفلسفة حرب دائمة ضد الدين وضد جميع ما وراء الطبيعيات . ولقد كان (كارل ماركس) يؤمن بهذه الفلسفة ،وقد عرضها فى العصر الحديث بعد تنقيحها من الأخطاء التى رآها خلال مراحل تسلسلها وبنائها كفلسفة ، وهذه الأخطاء التى لاحظها الزعماء الاشتراكيون تتلخص فى الآتى :

١ – إن نظريات المادية ميكانيكية بوضوح ، وهى لاتتعلق بتطورات الكيمياء والبيولوجيا الحديثة .

٢ – والنظريات القديمة للمادية كانت غريبة عن التاريخ والعمل الجدلى، ولم تكن مرتبطة تماما بنظرية التطور بقوة وانسجام وشمول .

٣ – والنظريات القديمة للمادية كانت ترعى الجوهر الإنسانى فى صورة مطلقة ، لا من حيث أنه مجموعة لجميع العلاقات الاجتماعية فى تساسل تاريخى معين ، ومن هنا نرى أن النظريات القديمة للمادية تصور العالم فقط ، مع أن الحاجة كانت ماسة لتغيير العالم ، أو بعبارة أخرى : إن هذه النظريات القديمة لم تكن تفهم أهمية النشاط العملى الثورى (١) .

---

(١) نفس المصدر ص ٤٥ .

الاشتراكية ونظرية التطور :

وقد تمت الاستفادة من نظرية التطور لدارون فى دعم نظرية الاشتراكية ، وبمساعدتها وضع النظرية المادية للتاريخ التى ترى أن تبادل الانتاج وأنواعه فى كل مجتمع من مجتمعات التاريخ الإنسانى كان أساساً لكل نظام اجتماعى ، ثم عثر – بعد ذلك – على قانون التطور الاجتماعى ، كما وضح « اينجلز » فى خطابه عند قبر ماركس .. .. فقال :

لقد اكتشف دارون قانون التطور الطبيعى ، واكتشف ماركس قانون التطور الاجتماعى ، وأنه قد كشف لنا عوامل تطور العصر الرأسمالى الراهن والمجتمع « البورجوازى » وقد حلت نظريته عن فائض الانتاج عُقد علم الاقتصاد وقد أفهمنا ماركس أن الإنسان يحتاج قبل الاشتغال بالسياسة والعلوم والفنون والدين إلى الأكل والشرب واللبس والسكن .

ودستور الدولة وأصول القانون والعلوم والفنون والمبادئ الأساسية لشرائع الدين كل هذه تختفى فى الأحوال الاقتصادية للمجتمع ، فإن أريد الوقوف على قوانين أو على دساتير دولة وأفكارها الدينية ، ومعرفة كيف ولماذا نشأت ؟ فينبغى أن ينظر إلى تاريخها الاقتصادى ، فإن الأحوال الاقتصادية للعصر هى التى تكون منبعاً لهذه الأفكار » (١) .

وقانون (دارون) التطورى يختص بالمرحلة الحياتية وينتهى بظهور الإنسان ، ولكن قانون ماركس التطورى يبدأ بالإنسان ويجعل النظام الاقتصادى طريقه ويتحرك إلى ثورة اشتراكية عالمية ، بحيث إن المادة قد تطورت ووصلت إلى الإنسان فاتخذ الإنتاج ووسائله نصب عينيه ، ونتيجة للارتقاء التدريجى يستمر فيه التغير إلى أن تحدث الثورة الاشتراكية فى العالم كله .

---

(١) رأس المال ص ٣٨ ٠

أثر نظرية الجبلة والجنس :

يوجد فى الاشتراكية أثر لنظريتى الجبلة والجنس معاً ، فلم يوجد فى هذا النظام محاولة لتحريك أوتار الحياة الدقيقة ، ولا سُلِّم فيه بعوامل الحياة ومؤثراتها مثل الفطرة وغيرها ، بل إنه قد جعل أصل الحياة الحالة الاقتصادية والحاجات الحيوانية للإنسان ، كما ورد فى البيان الشيوعى :

« هل يُحتاج للإيمان بأن تغير الأحوال المادية يؤدى إلى تغير النظريات والأفكار الإنسانية والعلاقات والأحوال الاجتماعية إلى دراسة عميقة ونظرة ثاقبة ؟ إن تاريخ الأفكار لا يدل إلا على أن الفكر الإنسانى يتغير بتغير الأحوال المادية » (١) .

وحسب العقيدة الماركسية فإنه يعمل دائماً فى نمو المجتمع الإنسانى فكر واحد ، وهو كيف توفر حوائج الحياة الأولية ؟ وكيف يحافظ على وسائل كسب المعاش ؟ وقد وجد السبيل إلى ذلك بأن « فُرِضَ اتباع دستور الحكومة وقوانين الاجتماع ، ولكن الطبيعة الإنسانية تكره القيود القانونية ، ومن هنا مست الحاجة إلى منطق الفلسفة وإلى الاحترام الدينى ، ومع ذلك فيكمن سر الحاجات الاقتصادية فى أعماق كل من دستور الحكومة وأسلوب الاجتماع والفلسفة والدين » (٢) .

خلاصة البحث :

ويتضح لنا من المقتطفات السابقة النتائج التالية :

١ — لقد نظر فى الاشتراكية إلى الإنسان والكون من وجهة نظر خاصة لايوجد فيها إله ولا روح ولا دين ولا أخلاق ولا قيم إنسانية ، بل إنها جميعاً من وضع الإنسان الذى يتبع الأحوال الاقتصادية .

---

(١) البيان الشيوعى ص ٣٨ .

(٢) ثورة روسيا ص ٦٨ .

٢ ــ ليست الاشتراكية نظاما اقتصاديا فحسب ، بل إنها فلسفة مستقلة تسيطر ــ عن طريق الاقتصاد ــ على حياة الإنسان كلها ، وتشكل الحياة وفق طريقة معينة .

٣ ــ وأخيراً فإن المجتمع الذى يتشكل بعد العمل التام بهذه الفلسفة يذكرنا بحركة (مزدك) (١) الإيرانية فى القرن السادس الميلادى ، التى جعل فيها الزعيم المجوسى « مزدك » المال والمرأة والأرض مشتركة مثل الهواء والماء ، وكان شعارها الإباحية العامة وحرية القول والفعل (٢) .

• • •

(١) داع ايرانى ، اتبع فى تعليمه مانى وأيد النزعة الفنوسية · أراد اشتراكية الأموال والنساء · أيد مذهبه الملك قباذا حتى خلع فأعاد كسرى انو شروان الزرادشتية (المراجع) ·

(٢) الملل والنحل ١/٦٦ ·

نهاية عصر الالحاد
والطريق الى الدين الحقيقى

من الواضح أنه لايمكن فى مثل هذه الأحوال الآنفة الذكر ... وجود نوع من التصالح مع الدين ، وقد كان (ماركس) نفسه يقول :

إن الدين يفعل فى قلب الإنسان وفكره فعل الأفيون (١) .

وكان لينين قد قال فى خطابه :

« نحن نقول بيقين إننا لانؤمن بالله ، نحن نعلم تماما أن القساوسة والإقطاعيين والبورجوازيين ينطقون باسم الله حتى يتموا تحقيق مصالحهم التى تقوم على النهب والسلب (٢) .

والحقيقة أن الزعماء الاشتراكيين لم يعرفوا الدين الحقيقى ، بل كان أمامهم نوعان من الدين السائد :

١ ـ الدين اللاهوتى الانعزالى الذى يدعو إلى الفرار من صراع الحياة ، ومن يتمسك به يقع فريسة للجمود والخمول ، وينحصر فى دائرة ضيقة جداً .

٢ ـ الدين السياسى الذى يستخدم الدين أداة للسياسة ، وتتغلب فيه مصلحة الإنسان على الدين .

---

(١) ثورة روسيا ص ٢٣٠ .
(٢) مجموعة كتابات لينين ج ٧ .

ــ ولاشك أن هذين الدينين قد شجعا دائما الصراع الطبقى ، وساندا التفكير الرأسمالى والإقطاعى ، وهكذا تعاون الأقطاعيون والزعماء الدينيون فيما بينهم على تحقير الإنسانية وإذلالها .

أما الدين الحقيقى فإنه قائم على المساواة ، وهو يعمل دائما على القضاء على الصراع الطبقى ومقياس الشرف والكرامة عنده هو الأخلاق المستقيمة والعمل الصالح ، لا الجاه والثروة .

وهذا الدين الحقيقى يؤكد ناحية المسئولية ، ويربط بها الحقوق ، فكما أنه يمنح كل شخص حق الحياة والانتفاع بحوائج الحياة فكذلك يوجب عليه أن يترك غيره يعيش ويحاول أن يسبق غيره فى الإيثار والتضحية ، وهكذا يضحى بنفسه إذا لزم الأمر كى يمنح الآخرين حق الحياة ، وهذا هو السبب فى أن هذا الدين حينما يظهر يلبى دعوته (أولا) الفقراء وأصحاب الإيثار بينما يعاديه الرأسماليون الجشعون والممثلون الدينيون المتاجرون بالدين .والإسلام ــ وحده ــ هو هذا الدين .. أو بتعبير آخر هو الدين الحقيقى الصحيح . وخلاصة القول : إن العصر اللاديني يقطع مراحله النهائية بينما العالم يحاول الوصول إلى حل لمشكلات حياته والوصول إلى طريق سوى لها بعد أن جرب الطرق المذبذبة بين الإفراط والتفريط .

وفى مثل هذه الحالة . يجب على المفكرين أن يفكروا فى إحياء الدين الحقيقى وأن يدعوا العالم التائه إلى العدل والاتزان اللذين لايتحققان إلا فى الدين الحقيقى الوحيد .... دين الإسلام ! !

* * *

وبعد ...

فلقد أفلست كل نظريات (عصر الإلحاد) ، ولقد فشلت كل محاولات (تلفيق دين) أو اختراع دين طبيعى أو إنسانى .. وإذا كانت القوى

(البوليسية)المدججة بالسلاح تفرض على بعض أجزاء من العالم (مذاهب الحادية) فإن ساعة الانفجار قد أوشكت ، وسوف يحطم المضطهدون والمقهورون أصنام أحزاب الإلحاد ... وسوف تشرق شمس الإيمان من جديد ... فى عالم آخر يحكمه المتواضعون لله المعترفون بحقه الذين يضعون (الآخرة) فى منظورهم ، هؤلاء الذين تنبأت الكتب السماوية الصحيحة بأنهم ورثة الأرض :

« ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون . إن فى هذا لبلاغاً لقوم عابدين » (١) ...

صدق الله العظيم

---

(١) الأنبيـاء ١٠٥ ، ١٠٦ .

فهرس الموضوعات

الفصل الثالث

العصر الحديث وأحواله الخاصة

(٥٥ — ١١٦)

رقم الإيداع ٣٣٢٤

دار العدالة للطباعة
٣٩ ش الاخلاص من شارع الفيوم
دار السلام - القاهرة

صدر قريبا من دار الصحوة :

- الإسلام (أثره فى الحضارة وفضله على الإنسانية) .

أبو الحسن الندوى

- مبادىء تدبُّر القرآن والانتفاع به .

أبو الحسن الندوى

- الفقه الإسلامى بين الأصالة والتجديد .

الدكتور يوسف القرضاوى

- شريعة الإسلام صالحة للتطبيق فى كل زمان ومكان .

الدكتور يوسف القرضاوى

- الإعجاز الإلهى فى مراحل خلق الجنين .

كمال محمد درويش

- صفحات مطوية من الثقافة الإسلامية .

الدكتور محمد السعيد جمال الدين

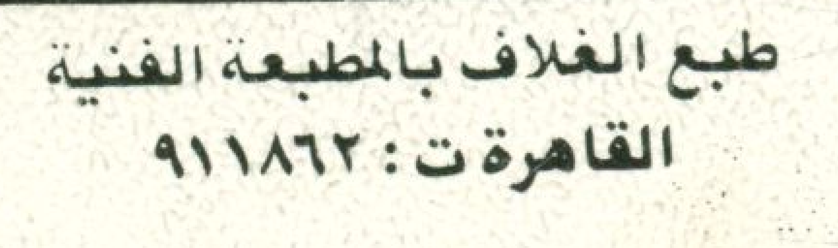
- رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين .

دراسة وتحقيق الدكتور محمد عبد الله الشرقاوى

ويسر دار الصحوة أن تقدِّم للقارىء العزيز كل جديد فى العلوم الإنسانية الإسلامية .



[دار] الصحوة للنشر والتوزيع : حدائق حلوان - بجوار عمارات المهندسين ت : ٦٨٨٠٧١ - القاهر[ة]


طبع الغلاف بالمطبعة الفنية
القاهرة ت : ٩١١٨٦٢

